

فولفجانج باور

ترجمة: جمال خليل صبح



السوريون والطريق إلى أوروبا



هاربون من الموت

Guide

هاربون من الموت

هاربون من الموت

السوريون والطريق إلى أوروبا

فولفجانج باور

ترجمة: جمال خليل صبح

الطبعة الأولى: 2016

رقم الإيداع: 2016/2028

الترقيم الدولي: 8-264-319-977-978

الغلاف: محمد السيد

تحرير: على حامد

60شارع القصرالعيني 11451 - - القاهرة

ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

Über das Meer by Wolfgang Bauer

The publication of this work was initiated and coordinated by the Goethe-Institut

and funded by the Foreign Office of Germany.

تم نشر هذا العمل بمبادرة معهد جوته وبتمويل من وزارة الخارجية الألمانية.

مقدمة المؤلف للنسخة العربية

في ربيع سنة 2011 كان أصدقائي يتهامسون بأن مصر هي "الحرية"، ثم زادت تلك الهمسات فيما بينهم وأصبحت: مصر هي "الأمان". كانوا ينتظرون من مصر أن يتمكنوا من العيش فيها بتواضع لا بأس به. كانت أصول هؤلاء الأصدقاء من سوريا؛ تلك البلاد التي تغرق في اللهيب في هذا الصيف الحارق. قال لي أحدهم "حياتي راح تبلش من جديد لما بشوف الأهرامات قدام عيني". لم يكن لديهم أدنى معرفة واقعية عن تلك البلاد التي لم يزوروها أبداً قبل ذلك الوقت. معرفتهم بمصر لم تكن إلا من خلال الإنترنت وبرامج التليفزيون.

لقد أتوا إلى مصر وعاشوا فيها كل شيء رائع. لم تكن هذه الحال إلا في البداية فقط. لقد تبدّلت الأحوال.

تجربة اللجوء في حد ذاتها هي تجربة إنسانية عامة وشاملة، لم تفلت منها قارة على وجه الأرض ولا ثقافة من الثقافات أبداً. لم ترحم ظاهرة اللجوء أي مجتمع على وجه البسيطة؛ من آسيا إلى أوروبا، انتهاءً بأمريكا. بل أستطيع القول من تجربة شخصية؛ من بين كل معارفي ليس هناك أيّ شخص لم يكن أجداده لاجئين في زمنٍ ما. بعضهم ماتزال تجربة اللجوء قريبة في تاريخه العائلي؛ تعود إلى بضع سنوات فقط، بينما يتحدث آخرون عن نفس التجربة التي حدثت منذ قرون عديدة. حتى عائلتي الضيّقة تتكون من أناس أصولهم بطريقة أو بأخرى من البرتغال، من أوكرانيا، بولندا وإيطاليا. كانت ألمانيا محطّتهم الأخيرة على طريق الهرب واللجوء. فيما كان بعضهم الآخر مهاجرين من مناطق فقيرة من ألمانيا نحو مناطق أكثر غنىً ورغداً.

هذه التجارب المختلفة لم تغيّر الأشخاص الهاربين من أقدارهم فقط، ولكن غيّرت أيضاً البلاد التي ذهبوا إليها. هناك أقاليم مجتمعية تعرّضت لضغوطات كبيرة وعميقة بسبب موجات اللاجئين من البشر؛ وذلك بسبب عدم قدرتها على استيعاب ودمج القادمين إليها لسبب أو لآخر. لقد غرقت هي الأخرى في

تناقضاتها القديمة والجديدة. إلا أن هناك بلاداً استطاعت أن تستوعب الطاقات الكامنة عند هؤلاء المهاجرين الجدد، واستطاعت قبل أي شيء أن تستخدم تلك الموارد خير استخدام، وذلك عبر اكتشاف ودعم إمكانيات ومواهب هؤلاء الغرباء وتنميتها وتطويرها من أجل ارتقاء هذه المجتمعات نحو درجات أفضل على سلم المدنية والحضارة.

ها هو العالم العربي يغرق في نفس الأوحال التي اجتاحت أوروبا من 70 سنة وأغرقتها بالحروب الهمجية وبالكراهية وبالعنف.

إلا أن قدر مصر الجغرافي أن تكون حلقة وصل بين عوالم مختلفة. تحيط بمصر حربان أهليّتان اندلعتا في سوريا وليبيا وجعلتا من أرض الكنانة كقطعة فلّين طافية على سطح بحر متلاطم الأمواج، تقذفها من جانب لآخر ومن جهة لأخرى. يعتقد النظام المصري بأن القبضة الحديدية هي فقط الوصفة التي يمكن استخدامها من أجل ضبط الأوضاع وحمايتها من الانهيار التام. إلا أن هذه القبضة نفسها تحذّر بأن شدتها قد تفوق قدرة الأوضاع على الاحتمال. هذه القبضة نفسها قد تسحق من زعمت أنها جاءت لحمايتهم وحفظ رغد عيشهم. لقد أثّرت قصة اللجوء - واضطرار الآلاف من البشر للهروب بأرواحهم - على مجتمع وسياسة مصر وذلك في مرحلة تاريخية غاية في الحرج أيضاً.

عندما قرر أصحابنا الهروب مجدداً وترك السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط - لكن من مصر هذه المرّة - صمّمت أنا والمصور "ستانيسلاف كروبر" أن نرافقهم في رحلتهم المجهولة تلك. لقد أخفينا شخصياتنا وقدّمنا أنفسنا كأشخاص هاربين من بلاد القوقاز. لم يكن هدفنا من كل ذلك إلا أن نوثّق بالحسّ والخبرة والتجربة القريبة الملامسة للواقع ماذا يعني بالضبط "الهروب واللجوء". كصحفي عملت لسنوات في مناطق ساخنة، وزرت لمرات عديدة بلاداً مختلفة من الشرق الأوسط، كنت في كل مرّة أقول لنفسي بأنني لم أعد أحتمل متاعب ما أرى وما أنقل من مشاهدات. في رحلتنا مع الهاربين كنّا نمرُّ بلحظات قريبة من هذه، نرغب فيها بالاستسلام والرجوع عن الاستمرار، كان

الخوف فيها يتملكنا ويأخذ بأرواحنا ويذيب قوتنا ويجعلها خائرة تماماً. رغم ذلك فقد كنَّا نمتلك ميزةً لم تكن من نصيب أي أحد من السوريين الذين كانوا معنا: الإمكانية المفتوحة في كل وقت للرجوع بشكل آمن. هذا كان حلماً للسوريين الهاربين من الجحيم، فبلادهم صارت كقطع اللحم التي يتناوب على التهامها الذئاب من كل حدب وصوب. لقد تعرّفنا في رحلتنا هذه على نساء ورجال غاية في الروعة. لقد عرَّفونا وعلّمونا ماذا تعني الصداقة الحقّة، ماذا يعني سمو النفس والعزّة والأدب الجمّ.

علمنا بعد حين بأن بعض هؤلاء الذين التقيناهم في رحلتنا لم يعودوا على قيد الحياة. لهم ولأرواحهم نهدي هذا الكتاب.

فولفجانج باور

هامبورج 21 – 8 – 2015

تقديم

أمام أعيننا تحدث كارثة إنسانية مضاعفة؛ تسببت الحرب الأهلية السورية -ولا تزال تتسبب- في عدد لا يمكن التكهّن به من الضحايا، بينما أصبح ملايين من السوريين على طريق اللجوء. بعضهم يحاول العبور باتجاه القارة الأوروبية عن طريق مصر. خلال ذلك يموت المئات سنةً بعد أخرى، بهذا صار البحر المتوسط أخطر الحدود البحرية في العالم. قام المراسل الصحفي الألماني "فولفجانج باور" بمرافقة لاجئين سوريين في رحلتهم تلك. كان معهم في مخابئهم في مصر وعلى متن القوارب وفي شوارع أوروبا. استطاع بذلك إخبارنا عن تلك المصائر الشخصية التي تختبئ وراء الأرقام الجافة، وعن الظروف المأساوية التي تحيق بقصّة اللجوء. يعتبر هذا النص وثيقة مهمّة ومناشدة حقيقية من أجل سياسات لجوء أكثر إنسانية.

"فولفجانج باور"، من مواليد 1970 يعمل في صحيفة "دي تسايت" واسعة الانتشار في ألمانيا. تقديراً لتقاريره المتميزة حصل على جائزة وسائل الإعلام الكاثوليكية وجائزة "بريكس بايو-كالفادو" الصادرة عن صحيفة "دي جيرو". المصوّر الفوتوغرافي "ستانيسلاف كروبر"، المولود سنة 1972 يعمل أيضًا في عدّة مجلات ذات وزن مثل "جيو"، "شتيرن"، و"ناشيونال جيوجرافيك".

الشاطئ لأول مرة

"يـلا امشـوا يـا ولاد الـ#@^%$"، انطلقت هذه الصرخة من ورائي، كان صوتاً رقيقاً لذلك الشاب الذي يبدو وكأنه مازال طفلاً، "يلا امشوا". وهكذا بدأت بالمشي، حتى قبل أن أستوعب ما الأمر، ومن دون القدرة على رؤية شيء بسبب حلول الليل، وجدت نفسي أجري مع الآخرين على طريق ضيق وفي صف طويل. نويت الجري كيفما استطعت، ناظراً أمامي على قدمي وهي تضع خطواتها على الأرض. كنّا نجري على الحجارة ونقفز فوق الحفر وعلى أنقاض سورٍ متهدّم، كنت أجري متعثّراً يمينًا وشمالاً. "يا ولاد الـ#@^%$"، صرخ بها مجـدداً أحـد الفتيـان الـذين كـانوا يتبعوننـا مـن أجـل الصعود بالأتوبيسـات الصغيرة، وباتوا بمحاذاتنا يجرون مثلنا. كانوا يضربوننا مثل رعاة الغنم. كان الفتى يضربنا بعصا كانت معه على الظَهر أو على اليدين، لا فرق. أخذني بقوة شديدة من يدي ودفع بي بقوة أكبر نحو الأمام. كنّا 55 شخصاً؛ بين رجال ونساء وأطفال. عائلات كاملة تحمل أمتعة على الأكتاف وحقائب في الأيدي. جميعنا كان يجري على طول حائطٍ يبدو أنّه يعود لأحد المعامل هناك، في مكانٍ ما من المنطقة الصّناعية في مدينة الإسكندرية.



كان ظَهر "حسّان" - الشاب الممتلىء ذي العشرين سنة من العمر- يصعد ويهبط أمامي ويصطدم بي أحياناً مانعاً تقدمي إلى الأمام. يحاول جاهداً هو الآخر

التقدّم مشياً نحو الأمام كيفما استطاع ووجهه موجّه نحو الأرض. توقّف فجأة، لم يعد قادراً على الاستمرار، كنت أدفع به نحو الأمام رغم كل الحقائب التي يحملها، حتى يستطيع إكمال تلك المسيرة المتعِبة. في تلك الأثناء كانت عُصيّ المرافقين تنزل علينا بقسوة. قبل "حسّان" بقليل رأيت "بيسان" - الفتاة ذات الثلاث عشرة سنة - تبكي من شدّة الخوف. وأثناء الركض تحاول الفتاة إحكام القبضة على حقيبتها - التي تحتوي على دواء السّكري - بكل ما تستطيع. "يا زبالة"! هكذا نادى علينا أحد مرافقينا الذين كانوا يوجّهوننا في الطريق. خلفنا كان يجري "عمّار"، الذي يبلغ من العمر خمسين سنة، مرتدياً جاكيت من النايلون السّميك أزرق التقليم، كان قد اشتراه لهذه المناسبة تحديداً. ابنته وجدت الجاكيت أنيقاً ولائقاً عليه. بدأ يتثاقل هو الآخر ويمشي ببطء، رغم آلام الركبة والظهر كان يقول بأنه سينجح في النهاية. ليس لديه خيار آخر، يجب عليه ذلك حتماً. "عمّار" سوريّ الأصل، حاله كحال الأغلبية هنا، ومصر بالنسبة له ما هي سوى محطّة في الرحلة التي خططها لنفسه. بعد قليل بدأ الحائط يميل بوضوح نحو الجّهة اليسرى. وفجأةً نظرنا حولنا وإذ بنا نجد الشيء الذي انتظرناه طويلاً في الأيام الماضية، والشيء الذي خشيناه أيضاً، لا يبعد سوى 50 متر عنّا، إنه البحر. كان يتوهّج أمامنا في مساء تلك الليلة الأخيرة لنا.

قررت أنا والمصور الفوتوغرافي "ستانيسلاف كروبر" أن نمضي مع اللاجئين السوريين، محاولين عبور البحر من مصر إلى إيطاليا. لقد سلّمنا قدرنا لمهربين لم يكونوا يعرفون أنّنا صحفيون. كانوا يضربوننا بالعُصيّ كالآخرين ويطلبون منّا أن نسير بسرعة كي لا يلاحظ أحد المجموعةَ التي كنّا ضمنها. لا يمكن أبداً أن يقبلوا بوجود صحفيين في رحلات كهذه حتى لا يتسرب شيء إلى الجهات الأمنية. كان أخطر ما يمكن أن يحدث لنا في هذه الرحلة هو أن يتمكّن هؤلاء من معرفة هوياتنا الحقيقية. فقط "عمّار" وعائلته كانوا الوحيدين الذين يعرفون حقاً من نكون. "عمّار" صديق قديم لي تعرّفت عليه أثناء تغطيتي الصحفية للحرب الأهلية في سوريا. اليأس هو فقط ما دفعه لتحمّل تعب هذه الرحلة وحلم العيش في ألمانيا. قام "عمّار" بالترجمة لنا أثناء هذه الرحلة. قمنا

أنا والمصوّر بإطلاق لحيتنا وعرّفنا أنفسنا بأسماء وهمية. أثناء تلك الرحلة تقمّصت أنا شخصية السيد



الصحفي "فولفجانج باور"على اليسار والمصور الفوتوغرافي "ستانيسلاف كروبر" عرّفوا أنفسهم على أنّهم معلمو لغة إنجليزية من القوقاز

"فارجي"، أمّا هو فكان معلم اللغة الإنجليزية السيد "سيرفات". نحن الاثنان عرّفنا أنفسنا على أنّنا لاجئون من إحدى جمهوريات القوقاز.

نحن الآن جزء من هذا التوهان والنفي. منذ شهر يناير وإلى منتصف سنة 2014 في شهر يونيو، قام حوالي 75 ألف شخص بالعبور إلى أوروبا عبر البحر، معظمهم حاول ذلك عبر ليبيا. قبل ذلك بسنة كان العدد يقارب الـ60 ألف شخص. هؤلاء الأشخاص كانوا من تلك البلاد التي تقع تحت ويلات الحرب مثل سوريا والصومال، بعضهم كانوا مواطنين من بلدان تسيطر عليها ديكتاتوريات مثل إيرتيريا، أو تلك البلدان التي تعيش أوضاعاً اقتصادية خانقة.

ما نراه يوضّح انهياراً كبيراً أتى على النظم السياسية في الشرق الأوسط. لقد سببت سنواتٌ طويلةٌ من القهر توتراً اجتماعياً شديد القوة. تبدو الآن نتائجه ظاهرةً أمامنا بشكل عنيف. لقد سقطت الديكتاتوريات، وسقطت أيضاً

الحكومات المنتخبة التي جاءت بعدها. شوارع القاهرة تمتلىء بالمظاهرات الدامية. يسقط اليمن في الفوضى، والعراق أيضاً. تتفتّت ليبيا إلى مناطق، تتحارب فيها المليشيات بعضها ضد بعض. ولكن ليس هناك بلدٌ لا يعرف الهدوء كما هي سوريا الآن. لم يشهد العالم منذ حرب فيتنام وحرب الشيشان دماراً مماثلاً كهذا. لقد تحوّلت المدن إلى أرض بور مملوئة بالدّمار والخراب. أمّا القرى، فقد هجرها سكانها أيضاً. منذ ثلاث سنوات يستمر "بشّار الأسد" بحرب الإبادة التي بدأها؛ مستخدماً في ذلك كل أنواع الأسلحة التي يمتلكها وصولاً إلى استخدام السلاح الكيماوي. يقاتل العلويون السّنةَ وليس هناك ما يشير إلى قدرة أحد من الطرفين على التفوق العسكري. في خلال ذلك تمكّن كثير من المتطرفين الدينيين من الدخول إلى هذه المعمعة، ناشرين حقدهم وعقائدهم التي تمتلىء بالكراهية.

الرعب الذي تمثله سوريا صار كبيراً بحيث لم يعد الحديث عنه بلغة الأرقام ممكناً. لقد توقفت الأمم المتّحدة بداية عام 2014 عن تعداد القتلى هناك.

حتى محاولة تجنب تلك الأخطار صارت - يوماً بعد يوم - خطراً في حدّ ذاتها. في كل سنة هناك ما يقارب الـ1500 شخص ممن يلاقون مصرعهم على طريق اللجوء إلى إيطاليا أو اليونان. يُعتقد بأن العدد الحقيقي أكبر من ذلك بكثير، لو أخذنا بعين الاعتبار الجثث التي لن يُعثر عليها أبداً.

يحاول المهربون بشكل دائم إيجاد طرق جديدة للتهريب؛ وذلك بسبب الإجراءات المبتكرة التي تتّخذها القارة العجوز (أوروبا) لحماية حدودها وسد منافذها بإحكام. هناك قوة متكونة من 400 ألف رجل شرطة في خدمة هذا الهدف. لقد بَنَت أوروبا جداراً عازلاً بطول 6 أمتار، كما هو الحال في المستعمرتين السابقتين "سبتة" و"مليلة" على البحر المتوسط. بلغاريا واليونان قامتا أيضاً ببناء حواجز؛ وذلك بهدف صد اللاجئين عنهم. أوروبا قامت بمراقبة مضيق جبل طارق بتكنولوجيا متطورة من الرادارات وكاميرات المراقبة. لقد فعلت نفس الشيء وقامت أيضاً بمراقبة تلك المسافة من المحيط الأطلسي

الممتدّة من جزر الكناري إلى غرب أفريقيا. في هذه الحرب الدفاعية هناك شرطة وجنود وقوات خاصة من جنسّيات متعدّدة. لقد تم استخدام طائرات الهيلوكوبتر، والطائرات الموجّهة بلا طيّار، بالإضافة إلى السفن وحاملات الطائرات الحربية. في هذه الأجواء نجد وفرة كبيرة بالمعدّات والقوات وكأن هناك هجوماً عسكرياً يجب مكافحته بكل ثبات.

هكذا تصبح حدود أوروبا مرةً أخرى شرائط موت. على مدى خمسة عقود، لاقى 125 شخصاً مصرعهم وهم يحاولون اجتياز حائط برلين الذي كان يفصل ألمانيا الشرقية عن ألمانيا الغربية. وأصبح هؤلاء عند العالم الحر رمزاً للوحشية وسبباً للاستنكار. بينما على تلك الجدارن التي تُحاط بها أوروبا منذ نهاية الحرب الباردة لاقى حوالي الـ20 ألف شخص مصرعهم وذلك حتى بداية سنة 2014 فقط. لقد غرق أكثرهم في مياه البحر المتوسط. ليس هناك حدوداً بحرية مماثلة قُتل فيها هذا العدد من البشر.

البحر المتوسط الذي كان مهد أوروبا وشهد مولدها صار المسرح الأكبر للخذلان والفشل.

لم يسبق لصحفيين أن قاموا برحلة مماثلة على متن قوارب لجوء من مصر، كتلك الرحلة التي قمنا بها ونحن ندرك تماماً حجم المخاطر التي سنواجهها. كل واحد منّا كان يحمل في تلك الرحلة تليفوناً محمولاً من أجل أن نتمكّن من الاتصال بخفر السواحل الإيطالية وقت اللزوم. لم نختر ليبيا أو تونس واخترنا مصر. لاشك بأن المسافة من هناك نحو إيطاليا أقصر بكثير، لكن القوارب التي تستخدم هناك شديدة التهالك. ولأن المهربين المصريين كانوا يخادعون باتخاذ طرق بحرية مختلفة، فقد توّجب عليهم أن يستخدموا سفناً أو قوارب أفضل نوعاً ما. هكذا علمنا قبل رحلتنا تلك وهذا ما كنّا نأمل به حقّاً.

لقد كنّا ساذجين. اعتقدنا بأن البحر هو الخطر الأكبر على هذه الرحلة. لقد علّمتنا التجربة لاحقاً بأن البحر لم يكن سوى واحدٍ من مخاطرها العديدة.

الوداع الأول

قبل أسبوع من ذلك اليوم الذي تم أخذنا فيه - تحت ضربات العصيّ- إلى ذلك الموقع من الشاطئ، كان "عمّار عبيد" والذي يعرف باسم آخر في الحقيقة، يقف حائراً متردداً في شقته في القاهرة. كان يوم الثلاثاء الثامن من إبريل، هو آخر يوم سوف يقضيه مع أسرته هناك. كانت ابنته "راوية" - التي تبلغ السابعة عشرة من العمر- تجلس على حافة السرير في غرفة نوم أبيها وأمّها، ولا تبعد نظرها عن والدها. سأل والدها وهو يقف أمام دولاب الملابس المفتوح أمامه "شو لازم آخد معي؟". لا يمكن أخذ الكثير من الأشياء طبعاً. لقد سمع "عمّار" بأن مهربي البشر لا يسمحون إلا بأخذ حقائب يدوية، وليس هناك أي تسامح مع أية حقائب كبيرة أبداً. قالت له ابنته "راوية" "لازم تاخد غيارات وألبسة داخلية تدفيك من رياح البحر". ردّ "عمّار": "لا أريد أن أبدو في إيطاليا متل المحتالين". أجابته قائلة "ولكنك ستبدو كذلك بالتأكيد؛ راح تطول ذقنك الشايبة وتصير أطول". علّق قائلاً "آآه، الجاكيت الواقي"؛ وذلك قبل أن يسحبه من علبته ويلبسه بشكل عكسي قاصداً ذلك. هنا ضحكت الفتاة وضحك "عمّار" هو الآخر واضعاً الجاكيت على خصر ابنته، محاولاً الرّقص معها بحركة مرحة. كانت ضحكات الأب والابنة تملأ البيت كله.

تعود الشقة الفاخرة التي نزلوا فيها بطرازها المعماري إلى العصر الباروكي؛ تمتد على مساحة 280 متراً مربعاً، فيما تطليها جدران مذهّبة، وفرش واسع رفيع القيمة. أصل الأسرة من مدينة "حمص"، وتتميز بأحوال مادية جيدة جداً، حيث تنتمي إلى طبقة التّجار وملاك العقارات. إلا أن الأب قد هرب مع زوجته وبناته الثلاثة إلى مصر بعد اندلاع الثورة في سوريا سنة 2011. كأغلب أفراد عائلته شارك "عمّار" بالأنشطة المضادة لنظام "بشّار الأسد". ولو قُدّر له البقاء هناك لكان عرّض حياته وحياة عائلته إلى خطر كبير. أخذ كل مدّخراته وأمواله وأسّس في القاهرة شركة استيراد صغيرة وقام من خلالها بجلب الأثاث من "بالي" والهند. افتتح محلاً وقام بتشغيل ثمانية عمّال فيه، وكان دائم السفر والترحال.

مع الوقت دخلت مصر في أجواء الثورة. ثم تبدّلت الأجواء نحو اللاجئين السوريين في خلال أشهر قليلة. قامت الحكومة في ذلك الوقت بإجبارهم على الحصول على فيزا للدخول؛ بحيث لم يعد "عمّار" قادراً على السفر للخارج من أجل متابعة أعماله ونشاطاته التجارية. كان لديه خوف كبير في حال عدم حصوله على فيزا لدخول مصر. بدأت تتسرّب روح العداوة تجاه الأجانب إلى أرض النيل. حتى بعض مقدمي البرامج في القنوات التلفزيونية بدأوا يحرضّون بلغة الكراهية تجاه اللاجئين السوريين. كان حصول السوريين على عمل يزداد صعوبة عمّا هو عليه. بدأ المصريون يدعون إلى عدم الشراء من محلات التجار السوريين، و"عمّار" كان أحد هؤلاء التجار بالطبع. كثير من المصريين كانوا يعتبرون السوريين إرهابيين أحضروا معهم عدم الأمان، كانوا يعتبرونهم حتى كائنات طفيلية أخذوا منهم أعمالهم ووظائفهم.

لقد تحوّلت مصر إلى فخ واضح، ووجدت كثير من العائلات السورية نفسها على طريق اللجوء. لم يمُنعوا من العودة إلى سوريا فقط؛ بل أُغلقت في وجوههم أبواب المستقبل هنا في مصر أيضاً.

لقد تناقشوا كثيراً في الأمر. بعد ذلك وصلوا إلى قرار عائلي بالاستمرار في طريق اللجوء. كانت ألمانيا هي الوجهة المفضّلة لديهم. ليس هناك من طريق رسمي أو قانوني آخر. قرر "عمّار" أن يكون أول من يذهب. وبمجرد أن يحصل على وضعية اللجوء سوف يقوم بإحضار عائلته إلى هناك. هكذا كان التخطيط الذي تمت مناقشته هنا بين الوسائد في المنزل. لقد كانت ألمانيا توحي بالأمل ولا تبدو مستحيلة. هم يعرفون بأن القوارب كانت تصل إلى إيطاليا رغم المخاطر الكثيرة التي تعترض طريقها. وفي حال الوصول إلى "صقلية" فهناك فرصة جيدة للدخول إلى ألمانيا من دون أن يتمكّن أحد من اكتشافهم. "عمّار" كان يأمل بأن يتم قبول طلبه باللجوء في ألمانيا كحال الكثير من السوريين الذين ذهبوا إلى هناك قبله. كل ما كان يقف عائقاً بين عائلته ومستقبلهم الأفضل تمثّل بشيء واحد: البحر.

سألته زوجته "رونالدا": "قديش ممكن تطول رحلة القارب؟". قال "عمّار" في ليلته الأخيرة تلك "ما بعرف قديش بالضبط". قد يحتاج القارب لخمسة أيام في رحلته عبر البحر، ولكن يمكن أن تستغرق الرحلة ثلاثة أسابيع أيضاً. هكذا كانت الحكايات المختلفة التي وصلت إلى الأسماع عن تلك الرحلات العابرة للبحر.

بقيت "رونالدا" زوجة "عمّار"، مستيقظة لساعة متأخرة من تلك الليلة وكانت تدخن طوال الوقت سيجارتها الإلكترونية.

كانت الزوجة تلبس بنطلون أسود ضيّق على الجسم من مادة اللاتكس المطّاطية. لحظة بعد أخرى تجمّع أفراد العائلة حول "عمّار". ابنته الأصغر ذات الخمس سنوات تجلس بين أحضان أمها وهي تضمّها برفق. تحاول بطابع غريزي تجاهل الوالد والابتعاد عنه. تشعر وكأنها تعاتبه على قراره بالرحيل، كان رحيله يشعرها وكأنه اعتداء عليها، رغم عدم قدرتها على استيعاب المخاطر المترتبة عليه. أمّا ابنته الثانية، الفتاة ذات الثلاثة عشر عاماً، والتي تضع تقويماً على أسنانها، فكانت تقول بنبرة فيها قليل من الغضب بأنها لن تترك القاهرة ولن تخرج منها. كانت الوحيدة التي لا تريد أن تخرج من مصر. هنا لديها الأصدقاء والمقهى المفضل الذي تذهب إليه. في ألمانيا لا يوجد شيء من هذا. كتبت على صفحتها في الفيس بوك منذ أيام، "فلتذهب ألمانيا إلى الجحيم". أمّا البنت الكبيرة فكانت تريد أن تدرس علم النفس في ألمانيا وكانت ترجو الذهاب مع والدها في هذه الرحلة ولكنه رفض ذلك لأنّها ما زالت تحت سن الثامنة عشر. "إنها تشبهني في كثير من الأمور"، هكذا يقول عنها والدها. كانت الفتاتان تذهبان إلى مدرسة دولية هنا، وكانت أقساط هذه المدرسة تكلف العائلة نصف ميزانيتها تقريباً.

ظهرت حماة "عمّار" وهي تتناول طعام العشاء بحضور جميع أفراد العائلة للمرّة الأخيرة. الست العجوز أصلها هي الأخرى من "حمص"، كانت تنظر بصمت وهي تتناول كوب الشاي ممسكة به بأصابعها البدينة الصغيرة. عبّرت العجوز عن رأيها بالرحلة الموعودة بأنها لن تكون إنسانية وفيها مخاطرة كبيرة. لقد تم

وضع كل مستقبل الأسرة على كف عفريت. كانت تسأله "هل فكرت ماذا سيحصل لزوجتك وبناتك لو حدث لك شيء ما في البحر؟". حتى الخادمة التي كانت تحضر الطعام في المطبخ وتساعد زوجة "عمّار" كانت ضدّ اللجوء إلى الماء والبحر هكذا. كانت الدموع في عينيها. على الطاولة جلس أيضاً ابن خال العائلة، تاجر المجوهرات والذهب في "حمص" والذي سيغادر مصر قريباً هو الآخر ولكن باتجاه "حمص". "ليس لدي ما أخاف منه عند الحكومة السورية. لقد حاولت في مصر منذ نصف سنة الحصول على رخصة تجارة ولم أنجح". يريد أن يجرب حظه مرة أخرى في سوريا، هناك حيث تنتعش مجدداً سوق المجوهرات. في ظروف الحرب الحالية تعتبر المجوهرات والأحجار الكريمة أفضل ما يمكن اقتنائه ممّا خف وزنه وغلا ثمنه، حيث يمكن إخفائها ولا تلفت النظر.

جلست كل العائلة لتناول وجبة الطعام الجماعية الأخيرة والتي تكفّلت النساء بتحضيرها وأخذت من وقتهم الكثير في المطبخ. كان الرجال يحاولون ترطيب الأجواء بقليل من المرح العابر، لكنّهم كانوا جميعهم يجلسون على الطاولة ورؤوسهم إلى الأسفل.

سأل ابن الخال "لمين قمت ببيع المحل؟". أجاب "عمّار": "إلى المحاسب التجاري الذي يعمل عندي". لقد باع المحل بربع ثمنه. وعدني الرجل بالاحتفاظ بالعاملين الذين كانوا يعملون معي في المحل. قال ابن الخال "أتمنى أن يكون القرار الذي اتخذته صحيحاً". هنا خفض "عمّار" نظره صامتاً.

في هذا اليوم قام بإجراء آخر الحسابات، بالإضافة إلى دفع آخر الفواتير. تمتلك العائلة الآن مدّخرات مالية تكفي لتحمّل تكاليف الحياة لمدة نصف سنة من دونه.



"عمّار عبيد" مع زوجته "رونالدا" وبناته الثلاثة في شقتهم في القاهرة

في تلك الليلة كان "عمّار" قلقاً ولم يستطع النوم بشكل جيد، كانت الساعات الأخيرة له في هذه الحياة التي ستصبح قديمة. عليه الآن قطع الوصال مع كبير العائلة، مع رجل الأعمال، الذي كان يحل المشاكل على التليفون. كل ما كان يعتمد عليه في الشهور القادمة يتلخّص بشيء واحد: اللجوء. وكأن على حياته أن تبدأ من الصفر.

في الصباح قامت "رونالدا" بضمه بقوة عند الوداع أمام الباب، عانقته بشدة وشدّته نحوها. كانت تقول "يا الله، أنا مشتاقتلك هلق". ابتعد عنها وحاول بسرعة الذهاب حتى لا يحدث شيء ما يغيّر ما كان ينوي القيام به. خرج من باب البيت حتى دون أن يلتفت وراءه. عاهد نفسه ألا يبكي. كان يريد أن يظهر لعائلته بأنه ما زال يمسك بزمام الأمور. كل شيء على ما يرام، يقول دوماً، هناك حل دائماً. قامت ابنته بحمل حقيبة ظهره وتوجّهت نحو السيارة ووضعتها في الخلف. عانقها للحظة قصيرة، نظر في عينيها مبتسماً وقال لها، أنتِ فتاتي القوية، جميلتي، بكت رغم تصميمها ألا تفعل ذلك أمامه. أغلق الباب وأدار سيارته خارجاً من الجراج الضيّق ويداه ترتعشان.

لن يُكتب لـ"عمّار" أن يرى زوجته وأولاده ربما لشهور قادمة في أحسن الأحوال. وفي أسوأها لن يُكتب له ذلك لسنوات. أمّا في الحالة الأسوأ قد لا يراهم أبداً.





على طريق اللّجوء

لو نظرنا إلى الطريقة التي تُدار بها تجارة البشر في مصر، سوف نجد أنها قد لا تختلف كثيراً عما هو عليه الحال في قطاع السياحة. على طول البلاد وعرضها تنتشر مكاتب لذلك، أو ما يعرف بالوكالات. يعطون الإيحاء لزبائنهم بأنهم لا يتعاملون إلا مع أفضل المهربين. إلا أنهم ليس لديهم تواصل إلا مع عدد قليل من هذه النوعية الجيدة من المهربين. تكلف الرحلة في حدود ثلاثة آلاف دولار، بعض أسعار الرحلات يزيد أو ينقص عن ذلك حسب العروض المقدمة، ولكن في النهاية تُوضع جميع الحجوزات بكافة أسعارها بالقارب نفسه. تحصل وكالات الحجوزات على مبلغ يعتبر كعربون يبلغ 300 دولار. كل المبالغ يتم جمعها عند وسيط، ويتم بعد ذلك دفع كامل المبالغ لهذه الوكالات، وذلك عند الوصول إلى إيطاليا. هذه الوكالات، أو بالأحرى أغلبها، تعمل بجهد للحفاظ على صيتها وسمعتها. تزدهر وتنتشر من خلال الروايات الشفهية والترشيحات التي يتحدث بها من كُتب له الوصول بنجاح عبر البحر إلى هناك.

الوسيط الذي اختاره "عمّار" كان يدعى "فادي"، وكان رجلاً كبيراً ومعروفاً، صاحب صوت خشن مميّز، بالإضافة إلى كونه من التجّار المعروفين في قطاع استيراد المفروشات. يقول "عمّار" عنه بأنه حلو الروح ويتشارك معه المرح والضحك؛ لأن ذلك يزيل القلق والهمّ نوعاً ما. ورغم كل الشكوك التي تساوره تجاه الرحلة المنتظرة، إلا أن "عمّار" كان يعرف كيف يجعل "فادي" يضحك. "فادي" رجل يحب السرور والضّحك. ذلك النوع من الضحك الصاخب الذي كنّا نسمعه كلما أظهر "عمّار" شيئاً ما على الآيفون الذي يحمله، سوف يظل يرافقنا طوال الرحلة.

على طريق السفر السريع - الذي سيحمل "عمّار" نحو المستقبل - يبدو التقدّم إلى الأمام صعباً جداً. إنه الزحّام الشديد. على هذا الطريق هناك مطبات عديدة ضد السرعة ظهرت واحداً بعد الآخر، وبشكل يعطّل حركة السير ويجعل منه

غايةً في البطء. كان هذا يشمل أيضاً الطرق الخمسة المؤدية للأوتوستراد، كما هي الحال في حركة السير في شوارع القاهرة كلها. كان "عمّار" عصبياً، كان يضرب بيده على الـ"دريكسيون" ولا يتوقف عن إطلاق الـ"كلاكس". اتصل بـ"فادي" حتى يخبره بأننا لن نستطيع الوصول في الموعد المتّفق عليه، عند مطعم "كنتاكي" المعروف في مدينة 6 أكتوبر؛ المنطقة العامرة التي لا تبعد عن العاصمة أكثر من ثلاثين كيلومتر. "كان لازم آخد معي الحبوب المهدّئة". قالها "عمّار" وهو يشتم ويلعن. كان يعني نوعين من الحبوب، "سيروتاكس 20 ميلجرام"، و"زإناكس 0.25 ميليجرام". وهي أدوية مضادة لحالات الخوف المرضية التي كان يعاني منها منذ أكثر من عام. لقد تركت الحرب في سوريا - بالإضافة إلى صعوبة الأوضاع في مصر - ندباتٍ على الحالة النفسية لـ"عمّار". كان يخاف من الباكتيريا والأمراض، من الإشعاعات، ومن الحشد أو التواجد في مكان مكتظ بالناس. وأخيراً وصلنا إلى المكان المتفق عليه للقاء عند مطعم الوجبات السريعة؛ حيث رأينا بالقرب منه شخصاً لطيفاً في مقتبل العمر يعمل عند "فادي"، كان واقفاً بانحنائة بسيطة ويبدو أنه مشغول بمكالمة مهمة على تليفونه الحديث. كان مُضفَّر الشعر ذا "سكسوكة" صغيرة. تقدم نحونا وقال لنا بأن السائق سيكون هنا في وقت قريب. كان يعني السائق الذي سوف يأخذنا بميكروباص صغير نحو شاطئ الإسكندرية، المكان الذي تنطلق منه أغلب رحلات اللجوء نحو إيطاليا.

سألت "رونالدا" زوجها "عمّار" عبر التليفون "كيف حالك؟". قال لها "كل شي تمام، لا تخافي". عادت وسألت "أخدت جاكيتك الدافي معك؟".

الرجل ذو الضفيرة كان يضحك ويدخن. لقد مرّت ساعات طويلة ونحن ننتظر. كان الجميع يلوذ بالصمت، بينما كان "عمّار" يحاول جاهداً الحصول على تفاصيل أكثر عن الرحلة المنتظرة. بالقرب من مطعم الوجبات السريعة كان ينتظر أيضاً ثلاثة أشخاص، الأخوان "علاء" و"حسّان" من دمشق - كما علمنا لاحقاً - وصديقٌ لهم. كانوا يرتدون جاكيتات رياضية جديدة للغاية، ويضعون

على رؤوسهم طواقي الصوف الشبابية. كان الثلاثة مرتابين وابتعدوا قليلاً عنّا وجلسوا مع بعضهم في المطعم. بدأ الليل يمضي شيئاً فشيئاً وعندما وصل الميكروباص أخيراً، بدأنا بحمل حقائبنا بسرعة وأسرعنا إليه. لم ينطق السائق بأية كلمة، لم يحيينا حتى، وكان متخشباً لم يحرك رأسه. داخل السيارة جلس فتىً بشعره القصير وعينيه البرّاقتين؛ أصله من مدينة "حماة" السورية، كان يعمل جرسون. وبينما انطلق الميكروباص واتجه نحو الشارع الرئيسي إذا بالسائق يكسر صمته أخيراً ويطلق لعنةً بشكلٍ مفاجئ متسائلاً "سبعة بس! فين الباقي؟".

قام السائق بعد فترة قصيرة بركن الميكروباص جانباً، كان يبدو عليه الغضب لأن السيارة تحمل لوحة الإسكندرية؛ ممّا يجعلها مختلفة ومعرضة للانكشاف في هذه المنطقة لو طالت مدّة الوقوف هنا. إلا أنه سرعان ما جاء إلينا ركاب آخرون بصحبة الشخص الدليل الذي كان معهم، الذي يلبس قميصاً أبيض ويضع هو الآخر على رأسه طاقية مميزة. في الأيام القادمة سوف تكثر مرافقتنا لهذا الرجل بلا شك. قال لنا رافعاً يديه نحو الأعلى " أنا آسف على التأخير". هنا انفجر السائق غاضباً "ده مش شغل معلّمين!". أيضاً "عمّار" أظهر امتعاضه، بصورةٍ كانت أقرب لتصرفات رجال الأعمال. أما الراكبان الجديدان فقد كانا يودعان جدّهما الذي رافقهما حتى وصولهما إلى الميكروباص. كانا أيضاً سوريين، اسمهما "ربيع" و"عزّوز" وهما أولاد عم وليس هناك من صعوبة في التمييز بينهما. فبينما كان "ربيع" بديناً ومتلعثم الكلام، كان "عزّوز" نحيفاً ومتحدثاً بارعاً. بحضورهما اكتملت كل عناصر مجموعتنا التي سوف ترحل. ورغم حالة الشك التي شعرنا بها، نحن أعضاء المجموعة نحو بعضنا في البداية، إلا أننا سنصبح أصدقاء في الأيام القادمة، ونشعر بأننا نتنمي لمجموعة واحدة. كان ذلك هو الشعور الوحيد الذي نحتاجه كنوع من الحماية الكبرى على طريق هذه الرحلة التي أمامنا.

"منيح اللي إحنا لقينا حالنا مع بعض"، قالها "علاء" في عتمة الانتظار في الليلة

التالية. "ما بخاف من شيء، طالما إحنا إيد واحدة ونتصرف كمجموعة مع بعض".

تابع الميكروباص سيره نحو الأمام. كان الجميع في داخله يضع حقائبه على رجله، وينظر من خلال الشبابيك إلى الخارج بصمت نسبي. كان السوريون ينظرون إلى هذا العالم الذي كان - لفترة - معروفاً لديهم، وفجأة أصبح غريباً. الآن يرى عديد من السوريين ما لا يراه إلا الشخص الذي لا يملك أوراقاً قانونية: إنها خصومة الواقع شديد السلبية. سوف يصبح الأسود أبيض، والأبيض سوف يصبح أسود. من الآن فصاعداً، بمجرد أن ننطلق بهذا الميكروباص الصغير سوف يتعين علينا فعل أي شيء لتفادي الشرطة وحواجز التفتيش. لقد ترك الركاب بطاقاتهم الشخصية وجوازات سفرهم عند أصدقائهم وأقاربهم في القاهرة؛ لأنه يجب عليهم عدم التصريح بأسمائهم الحقيقية هناك في إيطاليا. إيطاليا هي فقط محطة لمتابعة رحلتهم إلى السويد وألمانيا. إذا تم تسجيل الشخص في إيطاليا فيجب عليه تقديم طلب اللجوء هناك. وهذا ما يجب تجنبه بشدة.

"اتفاقية دبلن 2"، هي تلك الاتفاقية الأوروبية التي تحدد تفاصيلها هذا المسار. على الأخصّ ألمانيا كانت من الدّول السبّاقة التي راعت هذه الاتفاقية بشكلها الحالي، ودفعت الدول الأوروبية للقبول بها. الاتفاقية تلزم اللاجئين بتقديم طلبات اللجوء إلى البلد الأول الذي يستقبلهم. وفي حال امتناعهم عن ذلك ودخولهم بلداً آخر، ألمانيا مثلاً، فسوف يتم ترحيلهم إلى أرض البلد الأوروبي الأول الذي جاؤوا منه أول الأمر. ألمانيا بوضعها الجغرافي تقع في وسط أوروبا وتحيط بها عدة بلدان أوروبية. وهكذا لا يوجد لأي شخص من طالبي اللجوء أية إمكانية للوصول إليها إلا بعد المرور عبر تلك الدول المحيطة، أو عن طريق الوصول إلى المطارات بالطائرة. كل المسافرين معنا في هذا الميكروباص يريدون التوجّه إلى إيطاليا ولكن لا يريدون البقاء فيها. لذلك فهم يسافرون بدون بطاقاتهم الشخصية. وهكذا تساهم البيروقراطية الأوروبية بزيادة

أوضاع اللاجئين السوريين صعوبة في مصر، وذلك فوق معاناتهم وجروحهم.

كلهم يعرفون المخاطر والصعوبات المترتبة على عبور البحر. جميعهم سمعوا قصصاً مختلفة عن تلك القوارب التي توقفت محركاتها عن العمل في عرض البحر، عن تلك القوارب التي ذهبت غارقة في عرض البحر تفصلها مسافات شاسعة عن السواحل الإيطالية. لقد وصلتهم أخبار مهربي البشر من المحتالين الذين قذفوا بزبائنهم على السواحل التونسية بدلاً من سواحل إيطاليا. وصلتهم أيضاً أخبار أولئك الذين اعتقلهم خفر السواحل المصرية منذ شهور وهم على الشاطئ، وعن أولئك الذين تعرضوا لعمليات ابتزاز ونهب من قبل قطّاع الطرق والمهربين الذين اطمئنوا لهم على تلك السواحل، عن أولئك الذين لقوا حتفهم أو تعرضوا لإصابات بليغة وهم يقفزون من قارب إلى آخر. ولكنهم يعلمون أيضاً بأن الكثير من اللاجئين قد استطاعوا الوصول إلى أهدافهم، تعلّموا أيضاً أن يتغلبوا على أوقات الخوف هذه في سبيل الوصول إلى أوروبا؛ حيث لا خوف ولا جزع.

في غضون ذلك بدأ الليل يرخي سدوله. قام المهرب المسؤول بالالتفاف على نقاط تفتيش الشرطة المنتشرة هناك على الشارع الرئيسي، تاركاً الأوتوستراد المتجه نحو الإسكندرية وسالكاً طرقاً جانبية فرعية وضيقة. لم يكن السائق على معرفة كاملة، وكان يبدو غير متأكد من الطرق التي يسلكها، كان يقف عند كل تقاطع ويسأل عن الطريق الآمن الذي يمكن اتّباعه. المنطقة التي بها تواجد قليل للشرطة معروفة أيضاً بعمليات سرقة ونهب من قبل قطّاع الطرق. سأل السائق أحد البدو عند تقاطعٍ وصلنا إليه "الشارع ده تمام يا أسطى؟". ردّ عليه الشخص بشيء من عدم الاهتمام "لا يا باشا، ده بالضبط هو الشارع اللي مش تمام هنا". بعد قليل إذا بسيارة كبيرة تسد الطريق وتقف بشكل عرضي أمامنا. بدأ السائق يُظهر علامات الغضب، واضعاً رأسه على حافة باب الميكروباص من الداخل. سأل "علاء" وهو ينظر إلى السيارة الكبيرة التي تحاول التحرك بعرض الشارع الضيق "شو هاد، حادث؟".

غادرنا بعد ذلك إلى مدينة الإسكندرية مشاهدين صورة لهيب من النار كان يتصاعد نحو الأعلى. كانت المنطقة تقع بالقرب من منشئات تكرير البترول على ما يبدو. الإسكندرية هي ثاني أكبر المدن في مصر، يسكن فيها حوالي 6 ملايين نسمة، يتوزعون على شريط ضيق بين البحر والصحراء. ولأنهم لا يستطيعون البناء على الأرض، ترتفع المباني باتجاه رأسي مرعب. من الجهة الداخلية باتجاه البحر يزداد ارتفاع المباني بشكل واضح. تبدو المدينة وكأنها بكاملها مصدّ بحري هائل للأمواج. بينما تشكّل ورشات البناء - التي يبلغ عددها الثلاثين - ما يشبه المستوطنة المرتفعة في هذا المكان. كانت المساكن تبدو مثل الخرابات التي يصل إلى بعضها ضوء النهار، بينما يقع أغلبها في الظل والعتمة. بين هذه الكتل الضخمة ليس هناك من طرق، حتى وإن وجدت تبدو وكأنها شقوق ضيّقة في صخور كبيرة.

مع الوقت يمضي الميكروباص شاقاً طريقة بعمق في شقوق هذه المدينة. لم يكن السائق يعطينا أدنى فكرة عن الطريق الذي نسلكه جميعاً، تركنا نخمّن وحدنا، بينما كان يتحدّث على التليفون مع أحد الأشخاص، كان يقول له بأننا وصلنا إلى المنطقة الفلانية ونحن الآن في الطريق الفلاني، ويسأله عن كيفية الذهاب من كذا إلى كذا. بعد ذلك توقف بنا ورَمَانا بالقرب من مقهى دخلناه، بينما كان جميع من فيه يحدّق فينا. على التلفزيون كانت تدور مباراة في الدوري. بعد قليل من ذلك جاء ميكروباص آخر وأخذنا من هنا. هذه الطريقة في تبديل الأماكن



كانت على ما يبدو متوقعة من أجل التمويه في حال تم تتبعنا من طرف البوليس. "مبروك!". قالها وسيط الحجوزات "فادي" لـ"عمّار" على التليفون. "الليلة دي حا نوديكو للسفينة اللي حتاخدوها في البحر". الميكروباص الجديد الذي أخذنا من المقهى بدأ يدخل في طريق مظلم وضيق. مثل السائق الأسبق؛ لم يكن السائق ينبس ببنت شفة ولم يتكلم معنا مطلقاً. أطفأ محرك السيارة وقال لنا بأن علينا التزام الهدوء والبقاء ساكنين، طلب منّا عدم مدّ الأيادي خارج النوافذ. بعد قليل خرج وبدأ بتنظيف واجهة الميكروباص الأمامية، وبدأ بالانتظار. تساءل "عمّار" في عتمة الليل وهو جالس داخل الميكروباص "شو عم بيصير هون؟".

"لازم نوّقف الرحلة". أخبرنا "فادي" بذلك بعد قليل من الوقت على التليفون. قبل ساعة من الآن قام خفر السواحل باعتقال المئات من اللاجئين. يجب علينا إعادة تقييم الموقف.

قال لنا سائق الميكروباص بغضب - وكانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحاً - "يلا اخرجوا برّه". توقف جانباً في شارع فارغ ليس فيه أية حركة في ساعة متأخرة كهذه، في وسط المدينة بين مباني عالية. في إحدى ممرات المباني العديدة لمحنا شعاعاً من الضوء عند المدخل، أسرعنا داخلين إليه بعد أن فُتح بابه فجأةً أمامنا، وفي دور من الأدوار المرتفعة تم فتح باب شقّة ودخلنا

جميعنا إليها. نظرنا من زاوية الباب المفتوحة ورأينا صاحب البيت المؤجّر الذي قرر سريعاً إخفائنا في تلك الليلة. هنا دفع المهربون أجرة الليلة الواحدة ثلاثة أضعاف السعر الذي عادة ما تكون عليه الحال في النهار. كانت شقة متكونة من ثلاثة غرف، فيها سريران و"بطّانيّتان" للجلوس. هاجمنا النوم والخوف يفعل فعله فينا. أغلبنا كان قد استفاق من تلك النومة عندما دخلت أشعة الشمس علينا بعد صلاة الظهر بقليل.

المجموعة

لقد تبدّلت الحياة وإيقاعها. فالنهار أصبح ليلاً والليل أصبح نهاراً لكثير من اللاجئين. بعد أن استيقظ "عمّار" من نومه، ذهب خارجاً كي يشتري لنفسه وللآخرين "طَعميّة" للأكل. "عمّار" فرض نفسه مبكراً - أكثر من الباقين - بأنّه مؤهل ليكون قائد المجموعة والشخص الذي له الكلمة فيها؛ بحيث يستطيع التحدّث باسمها وإجراء المفاوضات والمساومات. كنّا ثلاثة عشر شخصاً هنا في الشقة، نتشارك معاً الطعام الموضوع بالأكياس البلاستيكية. بدأ كل منّا بالحديث من تلقاء نفسه. الأخوان "علاء"، 31 سنة، و"حسّان"، 20 سنة، كانا يتحدثان عن دمشق. كانت عائلتهما تمتلك ثلاثة محلات لبيع السجّاد في البلدة القديمة الدمشقية، وبسبب اندلاع الحرب كان عليهم أن يغلقوا المحلات وأن يتوقفوا عن أعمال التجارة فيها. "90 بالمية من زباينا كانوا أجانب". عندما استُدّعي "حسّان" للخدمة العسكرية الإلزامية قرر الهروب من سوريا. "حسّان" مازال يزن 110 كيلوجرام، رغم أنه كان قد فقد 40 كيلوجرام بعد أن أجرى عملية شفط الدهون المعروفة؛ الزيادة بالوزن وزيادة الشحوم الدهنية كانت مشكلة كبرى عند الطبقة الوسطى في سوريا. الشقيقان يريدان الوصول إلى السويد عبر إيطاليا، هناك حيث استطاع أخوهما الأكبر الوصول في السنة الماضية؛ بالقارب أيضاً. لقد كان محظوظاً للغاية في النجاح بذلك. قبل الوصول إلى إيطاليا بقليل غرقت السفينة. لقد سبح في البحر حتى قام حرس السواحل الإيطالية بإنقاذه وإنقاذ الآخرين الذين كانوا معه. "أخونا هذا يحب السّويد إلى درجة الهوس"، يقول الأخوان عنه أنه بدأ يتعلم اللغة، ويريد أن يفتح مطعماً للوجبات السريعة هناك.

ينحدر أولاد العم -"ربيع" و"عزّوز"- من عائلة ثريّة تعمل بالتجارة. كان "ربيع"، 22 سنة - بوزنه الذي يصل إلى 140 كيلوجرام - أكثر بدانة من "حسّان". قام بالانشقاق عن الجيش النظامي في سوريا. اختفى بضعة أشهر عند بيت جدّته في دمشق، واستطاع تهريب نفسه بأوراق مزوّرة نحو الأردن عن طريق أقارب

له. على الطريق وهو خارج من سوريا كان عليه اجتياز ثلاثين حاجز أمنيّ؛ كما حكى "ربيع". عند كل حاجز من هذه الحواجز كان يمكن أن يتم إعدامه ميدانياً. "أنا لم يعد لدي أي شعور بالخوف أبداً". كان يتنقل دوماً باسم مستعار، ويطلب من "أحمد" الحديث بدلاً عنه عندما يجب عليه أن يتكلم بالتليفون. حتى الفيزا لمصر حصل عليها بعد أن دفع مبلغاً من المال كرشوة. لقد دفع في الأردن 2400 دولار من أجل ذلك. "بدكون تشوفوها؟"، كان يتكلم باعتزاز، ثم أظهر لنا جواز السفر والفيزا التي اشتراها موجودة عليه. بعد ذلك تنقّل الجواز من يدٍ ليد، "علاء" أعطاه إلى "عمّار"، و"عمّار" بدوره سلّمه إلى "حسّان"، الذي أعطاني إياه فيما بعد. كلنا اندهشنا من حسن جودته ونوعيته. "والله أحسن من تبعي الجديد"، قالها "عمّار" معترفاً. ثم أطلق "ربيع" ضحكة عالية. لا أحد في المجموعة ينافسه في ترتيب الأمور وتسهيلها بالرشاوى. كان هو الآخر يريد الذهاب إلى السويد.



(أثناء الاختطاف في الإسكندرية. من اليسار إلى اليمين: بشّار، حسّان، عمّار وعلاء هو (مستلقي

ابن عمّه "عزّوز" كان عامل بناء في سوريا. خطيبته مازالت في سوريا هناك؛ يقوم بمحادثتها بشكل يومي من جهاز التليفون عن طريق "الفايبر". "عزّوز" هو صانع المرح في المجموعة؛ كان باستطاعته أن يجعل من كل موقف سبباً للضحك. يمازح كل شيء وأي شخص، ولكن كان لا يطيق أن يقوم أحد بممازحته أو بالسخرية منه. "عزّوز" يبدو كبهلوانٍ حساسٍ جداً.

بعد تناولهم وجبة الطّعام، تمددوا جميعاً على المقاعد والتعب يأخذهم، يسترخون بأجسامهم على "البطّانيّات"، يجلسون القرفصاء على الأرض، بعد أن يفرشوها بالـ"مخدّات". أما "عزّوز" فقد أخذ يتحدّث عن محاولاته الخمسة الفاشلة للوصول إلى أوروبا. "خمسة؟!"؛ سأله "عمّار" غير مصدقٍ لما يسمع.

المحاولة الأولى: هرب "عزّوز" من شمال سوريا إلى مدينة "أزمير" التركية، هناك كان من المفروض أن يركب بقارب مطاطي؛ ليأخذه إلى جزيرة في اليونان. كان القارب لا يزال في المرسى عندما قام خفر السواحل باعتقاله في لحظتها. المحاولة الثانية: هذه المرة حكى لنا عن المرشد الذي كان عليه أن يعبر به عن طريق يخت، إلا أن خفر السواحل جاء بعد أن تم التحميل بقليل. المحاولة الثالثة: القارب المطاطي الذي حملهم تعرض لشق صغير بعد أن احتك بشيء، أصبح مثقوباً ثم غرق. استطاع أن يسبح منقذاً نفسه ووصل إلى الشاطئ. المحاولة الرابعة: قام المهرب بسرقتهم في الطريق إلى الشاطئ، وتركهم بعد ذلك. المحاولة الخامسة: قام المهرب بسرقتهم عند الشاطئ، وتركهم بعد ذلك!

هذه الرحلة هي المحاولة السّادسة لـ"عزّوز".

اتصل "فادي" منسّق الرحلة. وكما هي العادة، فعندما يتصل "فادي" يصمت الجميع بشكل كامل. قال "فادي": "في ليلة اليوم حضروا أنفسكم!". بعد الملل الذي أصابنا اليوم، بدأ يسود شيء من التوتر والارتباك. كل شخص بدأ بتوضيب حاجاته، محاولاً جعلها مضادة للماء قدر المستطاع. لم يكن أحد من

المجموعـة قد ركب البحـر سابقاً، ما عدا "عزّوز". أما "ربيع"، الذي كان يسبح بشكل سيء جداً كما قال، فقد لبس جاكيت الإنقاذ. بالإضافة إلى حقيبة للموبايل مضادة للماء، مربوطة جيداً بسلسلة وبشكل محكم، حاملاً إياها في معصم اليـد، بالإضافة إلى قبّعة واقيـة من العواصف على الرأس مع نظارة شمسية. لبس "عمّار" الجاكيت الأزرق السميك، وكان يأمل أن يحميه من الرياح والرذاذ. إخفاء الأوراق والمال في أنحاء الجسم، استغرق منهم أغلب الوقت. كانت أصوات تمزيق الشرائط اللاصقة (الـ بلاستر) تُسمع في كل أنحاء البيت، كل شخص أخذ بتغليف الوثائق المهمة بـ"الفويل". في غرف النوم، في المطبخ، وفي الحمام يمكن سماع صوت الشرائط اللاصقة. قال "علاء" عن المهربين "لقد سمعت أنهم يأخذون منّا كل الحقائب التي معنا". كل شخص كان لديه خدعه الخاصة في الإخفاء، ولكن "عزّوز" كان الأكثر إثارة في ذلك. قام بخياطة كيس طويل من القماش؛ بحيث يمكن التحكّم فيه وتحريكه باليد من خلال الحبل الموجود في الملابس الداخلية. علّق "علاء" معترضاً "ولكن هذا يمكن أن ينتبه إليه الشخص مباشرة". "علاء" نفسه قام أيضاً بتثبيت محفظة النقود جيداً بين رجليه، رغم ذلك فهو يعتقد بأن "عزّوز" يبالغ فيما يفعل!

أما "جهاد"؛ الجرسون الذي أصله من مدينة "حماة"، فقد قام بلصق التقارير الطبية لأخته على بطنه. كان يفكّر بالطريقة التي يمكنه بها إحضار أخته إلى أوروبا لجمع الشمل بعد ذلك. "إنها هدية من اللّه"، قالها وهو الذي عادة ما يكون حاد الطّباع وعصبياً. أخته كانت مصابة بمتلازمة "داون" ومرض الربو. "أنا آمل أن يتم مساعدتها في أوروبا. هذه الأوراق بالنسبة إلي أهم من النقود".

جلسنا والارتباك ظاهر على أقدامنا، بقينا ساعات طويلة في الانتظار. في ساعة متأخرة من الليل، اتصل "فادي" مرة أخرى وقال إنّ علينا أن نتحرّك.



وهكذا مرّت ثلاثة أيّام أخرى. كل محاولات الذهاب بنا إلى السفن كان مصيرها الفشل مرة بعد أخرى. واجه المهربون مشاكل في رشوة الضباط المسؤولين عن حراسة السواحل، ذلك حسبما قاله "فادي". كانت الأمواج عالية في اليوم التالي أيضاً. "كل ما نقوم به من أجل مصلحتكم فقط"، قال "فادي" ذلك في اليوم بعد التالي، وقام بتأجيل الرحلة البحرية مجدّداً. "يا إلهي"، قالها "عمّار" في مساء اليوم الثالث متنهّداً. جلس مع الآخرين في حلقة دائرية، واضعاً وجهه بين يديه.

هذا الانتقال من وضعية الملل الشديد إلى أقصى درجات الانتباه، استنفد القدر الأكبر من الأعصاب. "علاء" و"حسّان" أصابتهما الإنفلونزا، بينما تملكني سعال شديد وقوي. أما "عزّوز" فقد جعَلَنا في يقظة دائمة من خلال اتصالاته المتكررة. كان الأخير الذي يصحو في ظهر اليوم التالي، والأخير الذي يذهب إلى النوم مع خيوط الصباح الباكرة. البيت الذي أنزلنا فيه المهرب كان يضيق بنا شيئاً فشيئاً. من خلال النافذتين كنّا ننظر إلى الحواري المُظلمة. ولكن عندما ينظر المرء إلى أقصى اليسار، فسوف يشاهد البحر. شاهدنا كيف كانت تصل الأمواج الواحدة تلو الأخرى على الشاطئ وكأنها تداعبه.

لقد كان المهربون موفّقين في اختيار المكان الذي أخفينا أنفسنا فيه. نحن -

اللاجئين - كنّا نسكن في قلب مركز مدينة الإسكندرية، في مكان يقع خلف المنتزه الرئيسي الذي يقع على شاطئ المدينة الشهيرة. في الليل والنهار يقوم الآلاف من المارّة والمصطافين وحتى المسافرين بالعبور على طول الطريق الشريطي الموازي للبحر. في هذا المدّ الفوضوي من البشر، يكاد وجود اللاجئين ألا يلفت نظر أحد. ولكن في لحظة ما لاحظ "عمّار" بأن بوّاب العمارة عند البوّابة الرئيسية قد استغرب وجود سوريين هنا وهم يمشون ذهاباً وإياباً، مع أنهم لا يقومون بعمل ما ولا هم بسيّاح. بادر بالسؤال "إنتو مين؟". في مصر يجب على المرء أن يحذر من بوّابي العمارات السكنية. إذ أنهم يشكلون النقاط التي ترتبط بها شبكات المخابرات. قال "عمّار" محذّراً الآخرين في مخبأهم "كأنو انتبه إنو في شي".

تأمر "رونالدا" زوجها على التليفون "تعال ارجع على البيت، كل هادا كابوس". لقد رفض "عمّار" طلبها. لن يسامح نفسه مدى الحياة في حال تراجع الآن عن قراره. "الغالبية لا تمتلك أن تسحب نفسها من الخراء الموجودة فيه. ولكنني أستطيع ذلك. أنا عندي امتياز القدرة على المحاولة على الأقل".

حاول "عمّار" أن يقنع "فادي" بتغيير المخبأ الذي كنّا فيه، هنا لم يعد الوضع آمناً، كان يقول ذلك على التليفون محادثاً "فادي"، بينما لا يقوم الآخر إلا بإطلاق ضحكته المعتادة. كنّا متوترين للغاية. "فادي" يضحك، لكنّ "عمّار" يبدو مشغولاً بمتابعة كل حركة تصدر في الخارج من خلال "بير السلم". بدأت تتكرّر اللحظات التي نجده فيها هو و"علاء" يقفزان من أماكنهما، ذاهبين نحو الباب ومحاولين استراق السمع خلفه. في حال قام بوّاب العمارة بإخبار الشرطة؛ سوف تنتهي رحلتنا قبل أن تبدأ. في الليلة الرابعة حدث شيء ما، قام مؤجر البيت الذي ننتظر فيه بالاندفاع إلى الداخل وطلب منّا أن نتحرّك فوراً، كان يصرخ فينا "قوموا قوموا يلا". هذا "الغاضب" هو نفسه صاحب البيت الذي شاهدنا وجهه للحظة قصيرة في الليلة الأولى التي جئنا فيها. قال لنا "إلى السفينة". في خلال ذلك كان ميكروباص صغير ينتظرنا عند المنتزه على

الشاطئ. سرعان ما ذهب "حسّان" و"علاء" إلى أمتعتهما، بينما كان "عزّوز" مشغولاً بمتابعة تغليف الأوراق، أما "ربيع" فكان يشجعه على الإسراع، كان "عمّار" يقف إلى جانبه ويدوس على يديه بتوتر واضح "علينا أن نذهب، الآن يا عزّوز، الآن يا عزّوز!".

بعد ذلك أسرعنا جميعاً إلى السلالم حاملين حقائبنا الثقيلة، وواضعين الطاقيات السوداء على رؤوسنا. مررنا بجانب البوّاب، الذي بات الآن متأكداً من نحن وماذا نفعل هنا. نريد أن نذهب إلى تلك القوارب. بدأت المجموعة تشقّ طريقها بسرعة بين المجموعات التي تتنزّه على الشاطئ. كانوا ينظرون إلينا ويلتفتون نحونا، رمونا بنظرات حائرة. كان الميكروباص الذي ينتظرنا صغيراً جداً علينا. ليس هذا فقط، بل هناك عائلة من امرأة وثلاثة أطفال سيتم أيضاً حشرهم معنا فيه. هؤلاء كانوا يريدون الذهاب إلى ألمانيا، إلى مدينة "ميونيخ" تحديداً. كان "عزّوز" يجلس محشوراً وممداً على "علاء" و"ربيع". وضعنا حقائبنا بيننا على الأرجل وتحت الذقون، لم يظهر منّا إلا رؤوسنا المطلة فوق الأشياء. كنّا نأمل برجاء كبير ألا تظهر الحقائب والأمتعة للناظر من الخارج.

دخل الميكروباص الـ"تويوتا" بأكثر الطرق ازدحاماً في المدينة، وهذا ما جعلنا في مأمن نوعاً ما. كان الميكروباص واحداً من الميكروباصات الكثيرة المتشابهة التي تخترق الشوارع هنا. إلا أنه وبعد وقت قصير، بدأ السائق يتّخذ طرقاً جانبية ويزيد من السرعة بشكل ملحوظ وكنّا نقع على بعضنا عند المنحنيات والدوارانات. متجاوزاً عدداً كبيراً من السيارات؛ كان السائق تحت تأثير المخدرات، حاله كحال جميع تجار البشر الذين صادفناهم هنا. كان العديد منهم يتعاطون مزيجاً من المنشطات المعروفة بالترامادول، بالإضافة إلى الحشيش والكحول. "راح يموتنا هالزلمة"، قالها "علاء" متأوهاً. بعد حوالي ساعة من السير هكذا وصلنا إلى إحدى المناطق الصناعية التي لا يوجد بها إضاءة كهربائية. مررنا بحاجز مؤقت ظهر فيه خمسة أشخاص مسلحين ببنادق صيد. كان اثنان منهما يمسكان بكلبين من السلسلة التي تلف عنقيهما، كانت

العصبية واضحة عليهما وهما يقفان على الطريق.

سألت زوجة "عمّار" على التليفون "لو سمحت، قلي شو عم بيصير معك هلق؟". لقد قامت بدعوة أمها وأختيها وعميّن لها بالإضافة إلى ابنتها الكبيرة للتجمّع عندها في المنزل. لم تكن لتتحمل هذا التوتر الكبير وحدها. همس "عمّار" مختبئاً خلف حقيبته الظهرية "ما بعرف".

قال أحد الرجال - الذي ظهر أمام زجاج الميكروباص في الخارج - "اقفلوا التليفونات". قام المهربون بتجميع ركابهم في هذه الحارة الضيّقة. بعد قليل جاء ميكروباص آخر، وتم ركنه أمامنا على حائط يبدو أنه لمصنع هنا. كنا نشاهد تخطيطات وترتيبات الرجال الواقفين في الخارج من خلال زجاج الميكروباص الغامق. "خمسة وثلاثون شخصاً بالإضافة إلى خمسة أطفال"، سمع "عمّار" هذا من أحد الرجال الذين مرّوا بالقرب منه. بعد ذلك لم يحدث شيء لساعات طويلة. كنّا نجلس في الداخل محشورين بشدة، لدرجة شعرنا فيها بأن الدماء كانت تتسمّر في أرجلنا. ما كنت لأستطيع أن أحرك رأسي لميليميترات قليلة إلا عندما تبتعد حقيبتان عن بعضهما للحظة. لقد منعنا المهربون أن نخرج من الميكروباص. حاول "جهاد" بالرغم من ذلك أن يخرج من الميكروباص عبر النافذة المفتوحة جزئياً، قال إنه سوف يختنق إن لم يخرج. حاول "عمّار" أن يمنعه، كان يخشى من رد فعل الرجال الواقفين أمام الميكروباصات في الحارة الضيّقة. لو رأوه خارجاً هكذا سوف يكون هناك مشكلة. و"جهاد"، المعروف بعناده لن يترك الموقف يمرّ هكذا. لم ينصت إلى "عمّار"، أخرج "جهاد" نفسه من الميكروباص واختبأ خلفه بدون أن يلمحه أحد لحسن الحظ.

بعد قليل سوف تشرق الشمس على المدينة، إلا أن "ربيع" الذي كان يجلس في المقعد الأمامي من الميكروباص، قد وصل إلى سمعه أن المهربين سوف يوقفون الرحلة الآن ولن يكملوها. يبدو أن الأمواج كانت عالية وقوية جداً. بعد ذلك جاء سائق الميكروباص، وجلس خلف الـ"دريكسيون" من دون أن يتحدث

إلينا بأية كلمة أو يوضح لنا ما في الأمر. أما الميكروباص الآخر فقد رحل واختفى خلف سور المصنع. صرخ سائق الميكروباص الذي نحن فيه "لن أذهب". كان يصرخ في وجه أحد المهربين الواقفين أمامه عند نافذة الميكروباص المفتوحة. كان يريد مالاً أكثر. همس "عمّار" مطلقاً شتيمة عليه. كان الرجل الواقف في الخارج يقوم بحركات تبدو لا إرادية، هذا من تأثير المخدّرات. لقد صرخ الرجال بوجوه بعضهم، ثم قام الواقف في الخارج بضرب باب الميكروباص بقبضته وبقوة، بعد ذلك بدا وكأنهم وصلوا إلى حل، بأن يتم دفع عشرة جنيهات زيادة، مباشرة في الحال. بعد ذلك تحرّك السائق ورجع إلى القيادة بسرعة فائقة عند المنحنيات، متخذاً طريقاً متلوّياً أثناء القيادة في المنطقة البعيدة التي نحن فيها.

بعد دخولنا في بعض الشوارع الفرعية بقليل، تتبّعتنا سيارة "كيا" خضراء اللون وحاولت إيقافنا بالقوة. هرب سائق الميكروباص، وداس بشكل قوي على "دوّاسة البنزين"، كان يحاول أن يتخلص من الآخرين الذين يتبعونه. لوقت قصير أخذ الميكروباص والسيارة الـ"كيا" الخضراء يتسابقان بشكل جنوني في شوارع المدينة، إلى أن تمكّنت السيارة الـ"كيا" بقطع طريقنا وإجبارنا على التوقف في أحد الأماكن الغارقة بالظلام. قام رجلان بسحب سائقنا إلى خارج الميكروباص. بعد ذلك قام رجل غريب بالجلوس خلف "دريكسيون" الميكروباص الذي كنّا بداخله، ظهر على هيئته أنه عديم القيمة والأهمية. قام هو بمتابعة قيادة الميكروباص، دخل هو أيضاً شوارع ضيقة مظلمة إلى أن توقف أمام مجموعة من الرجال في مكانٍ كانوا ينتظروننا فيه. رجال حليقو اللِحى، أكتافهم عريضة، ينظرون إلينا بابتسامات هادئة، وكأن هناك شيئاً يستدعي الاحتفال به.



همس "عمّار" داخل الميكروباص بحزن"أعتقد بأنو إحنا انخطفنا، اللّٰه يكون معنا"

اختطاف

في الإسكندرية هناك عالمان متواجدان بشكلٍ متوازٍ إلى جانب بعضهما. عالم النهار؛ حيث يقوم الأشخاص فيه بارتداء الملابس الرسمية أو المدنية في بعض الأحيان. هؤلاء مرتشون وفاسدون، ولكنهم لا يمانعون في إظهار هويتهم من أجل إضفاء نوع من الشرعية على عملهم. بعضهم من جهاز الشرطة. أما العالم الآخر فهو عالم "البلطجية"، الأشخاص الذين يقومون بالسيطرة على المكان عندما يحلّ الليل. يتكون البلطجية من عدد كبير من العصابات الصغيرة، التي تقوم بأعمال عديدة، منها اغتصاب الأموال والحماية تحت الابتزاز، تجارة المخدرات، بالإضافة إلى تنظيم شبكات الدّعارة. "البلطجة" يمكن النظر إليها كمتحف كبير للإجرام، حيث تتم فيه المساومة على كل شيء يمكن دفع الأموال من أجله. في هذه الأوضاع نشكل نحن - اللاجئين الذين يريدون أن يغادروا البلاد - بضاعة ممتازة للمافيا في مدينة الإسكندرية؛ حيث يمكن التجارة فينا بكل سرور وترحاب.

كنت أنا و"ستانيسلاف" في وضع مربك لا نُحسد عليه. ماذا يمكن أن يفعل بنا الخاطفون، لو اكتشفوا حقيقة من نكون؟!

قام أحد الرجال بدخول الميكروباص، وأغلق الباب الجرّار خلفه وصاح قائلاً "اتصلوا بالدليل بتاعكم". قام الوسيط "محمد" بالاتصال بذلك التاجر المدهش، الذي كان قد حضر معه في النقطة التي تم الاتفاق عندها في القاهرة، وجعله يتحدث بنفسه مع الخاطف. بعد ذلك بقليل توقف ميكروباص صغير يحمل لوحة مصرية ويحمل شباباً مصرياً. كانوا طاقم القارب الذي من المفترض أن ينقلنا من الشاطئ إلى قارب الصيد في وسط البحر. كان الموقف يظهر وكأنهم هم أيضاً قد تعرّضوا للخطف مثلنا. قال "جهاد" صاحب الطبع المتهوّر "لازم نقوم نهجم عليهم، كلنا هيك كرجل واحد نهجم عليهم، هي فرصتنا الوحيدة". قال "عمّار": "جهاد معو حق، ما لازم يقوم أي شخص هلق بأي سلوك جبان، إحنا

قادرين نخليهم يهربوا مننا، ولكن يجب علينا أن نترك حقائبنا هنا". لم نشاهد أية أسلحة مع الرجال الذين يحيطون بالميكروباص الصغير الذي نحن فيه، لكنه من المؤكد أنّهم يحملون سكاكين تحت ملابسهم. كان أحد الخاطفين يمشي ذهاباً وإياباً أمامنا، ويبدو عليه الارتباك والتّوتر. بعد وقت قصير جلس خلف الـ"دريكسيون" وأدار موتور الميكروباص. قال ذلك الرجل "إحنا بنحاول نحل المشكلة، ما تخافوش". مرة جديدة ندخل في أحياء جديدة غير معروفة لنا من قبل، أحياء تبدو فقيرة أكثر فأكثر، رأينا أشخاصاً كثيرين يخرجون من المساجد، كان وقت صلاة الفجر. توقّف خاطفنا في ساحة مجمع سكني، فيه عمارات بسبعة أدوار، في مكان مليء بالنفايات وبقع الماء المتسخة. قال لنا بأننا أحرار الآن، لكنّه كان يكذب. يجب علينا قضاء اليوم في استديو صغير هنا. سأله "عمّار": "قول لنا شو المشكلة بالضبط؟". شرح لنا بأن العصابة المسؤولة عنّا قد افتعلت مشكلة مع العصابة الأخرى التي سوف تنقلنا إلى أوروبا. رئيس العصابة المسؤولة عن مجموعتنا قام بخداع رئيسه؛ كما قال الرجل الخاطف. لقد قامت العصابات بتقسيم الشاطئ الذي ترحل منه قوارب اللاجئين إلى مناطق محددة، وتكون كل عصابة مسؤولة عن إحداها. يُعتقد هنا بأنه لا يُسمح لأحد المجموعات باستخدام جزء من الشاطئ إلا بالتوافق مع العصابة المسؤولة عنه، وذلك لا يتم إلا مقابل دفع مبالغ مالية محدّدة. في المرة السابقة لم يلتزم المهرّب المسؤول عن مجموعتنا بهذا الاتفاق ولم يدفع المال. "هي فوضى وهيك بيصير"، قالها "عمّار" معلّقاً على ماجاء به الخاطف وكأنه مدير شركة رسمية. ثم استكمل "هادا بزنس حسّاس كتير ولازم يكون التنظيم على أفضل وجه"، ضحك الخاطف بعدها.

في آخر تلك الليلة تسللنا داخلين إلى سلم العمارة، يقودنا رجل سكران، فتح لنا باب شقة صغيرة ليس فيها ماء، تبدو وكأنها قد تم طلاء جدرانها حديثاً. كان يتلعثم في حديثه معنا بلغة فيها تهديد. يريد منّا مالاً على ما يبدو كي يبتزّنا، 1500 دولار. تعب "عمّار" كي يفهم كلماته، كان يترنح وكاد يقع، وكان يحمل في جيب البنطلون مطواة. قام "عمّار" بأخذه بالأحضان، قبّله على خديه

وشكره لحسن تفهمه ولصبره معنا، وقال له بأننا فعلاً لا يمكننا أن نعطيه النقود التي يطلبها. طلب منّا الرجل ألا نقوم بأيّة ضوضاء في المنزل، وألا ننظر من خلال النوافذ إلى الخارج. "إنتوا مش عارفين إيه اللي هيحصل لكم". قالها الرجل السّكران، قبل أن يغلق الباب خلفه.

نادى عليه "حسّان": "يا معلّم؟! ليش هيك حكيت معنا؟" وذلك من خلال الانتركوم.

الأشخاص الذين كان همّهم أن يكونوا أحراراً، لم يشعروا في حياتهم بهذه الدرجة من التقييد والسجن. كل ما بقي لدينا كان مساحةً لا تتجاوز الـ55 متراً فقط. غرفتان ومطبخ شديد القذارة، بالإضافة إلى حمامٍ ليس به مياه للتنظيف. في إحدى الخزائن المثبتة على الجدران اكتشف "عمّار" حقيبة تعود لأحد اللاجئين الذين قُبض عليهم قبلنا هنا. كان في داخلها ثيابٌ لأطفالٍ ونساء. "ماذا حصل معهم يا تُرى؟".

في الساعة الأولى من احتجازنا، قضى أغلب أفراد المجموعة وقته واقفاً؛ وذلك لأنهم رفضوا الاستسلام إلى الظروف الجديدة التي وجدوا أنفسهم فيها؛ والتي تفرض عليهم الاستلقاء على أسرّة مليئة بالغبار. كانوا محتارين، وما زالوا يلبسون الثياب التي قرروا أن يلسبوها في وسط البحر أثناء الرحلة المفترضة. بالتدريج بدأوا يستوعبون بأن عليهم أن يغيروا ملابسهم، وأن يستلقوا ببطء شديد على المخدّات المبعثرة على بلاط البيت المليء بالغبار. بعد ذلك استسلم جميعهم لنوم عميق.

فقط "علاء" بقي مستيقظاً، وأنا مثله. لم يكن يطمئن للهدوء، وأنا كنت متأثراً جداً. وبينما كان "علاء" جالساً على طرف السرير الذي ينام عليه أخوه "حسّان"، إذا بنا نسمع أصواتاً عند باب البيت. أحدٌ ما يحاول أن يفتح القفل. كان هناك خربشة واضحة عند الترباس. عندها قلت في قرارة نفسي بأنه من الأفضل لي البقاء مستلقياً حيثما أنا موجود على الفرشة، كان لدي قلقٌ كبير من أن يُكشف

أمرنا، وأن يعرف الخاطفون حقيقتنا كمراسلين. بدأ "علاء" بالبحث في الشقة عن سلاح يمكن استخدامه عند الضرورة، مطواة أو عصا أو أي شيء، لم يجد شيئاً من ذلك. بعد قليل انفتح باب الشقة قليلاً بدفعة واحدة. ظهر هناك ثلاثة رجال عند الباب ودخلوا جميعهم إلينا، وكان بينهم الرجل الذي ساقنا إلى هنا. هنا بادر "علاء" بالسؤال "شو فيني ساعدكم بشي؟"، أرادوا إحضار القهوة لنا كما فهمنا منهم. وبالفعل أحضروا معهم إبريقاً للقهوة وبعضاً من الأكواب البلاستيكية وقدموها إلينا. علّق "علاء" قائلاً "يعني بهالوقت القصة مو قصة قهوة". أخذ منهم ما أحضروه وبعدها انصرفوا وتركونا مجدّداً. لم نعرف مطلقاً لماذا دخلوا علينا هكذا، وماذا كانوا يريدون حقّاً من ذلك. هل أرادوا اختبار يقظتنا؟ هل أخذوا نظرة على الأمتعة التي كانت معنا؟ لقد بقيت تلك الزيارة الليلية لغزاً محيّراً لنا.

في اليوم الثالث من احتجازنا هنا سأل "علاء" عن إمكانية أن يعطيه "عمّار" بعضاً من الحبوب المهدّئة التي معه. لم يكن بإمكانه أن ينام. في ظل هذه الإقامة الجبرية، حدث توتر بين "علاء" وأخيه "حسّان"، الذي كان يتّهمه بالكسل والخمول، وبأنه لا يستطيع أبداً أن يأخذ قراراً بنفسه. شكى مرةً لـ"عمّار" - عندما لم يكن "حسّان" موجوداً في نفس الغرفة - "في بيتنا بالشام كان يضل قاعد على الأفلام والفيس بوك طول الوقت". لقد وصل وزن "حسّان" إلى 150 كيلو قبل أن يجعل بطنه تستسلم إلى عملية شفط الدهون. كل العائلة نبّهت "حسّان" كثيراً بأن عليه أن يغيّر نفسه. كان "علاء" يعاني من "حسان"، و"حسّان" يتعب هو الآخر من هذه المعاناة. كان "حسّان" يشعر بأن "علاء" يتحكم به، مع أنه بلغ العشرين من العمر، ولم يعد طفلاً حتى يلقي عليه الأوامر ويعطيه التعليمات. كان الاثنان ينظران إلى بعضهما بنظرات جارحة.

سأل علاء "هلق أنا أخ سيء شي؟".

سمح لنا خاطفونا بإحضار الطعام والماء دائماً. في بعض الأحيان كنّا نتجاهل تعليماتهم بمنعنا من فتح جهاز التليفزيون؛ لأننا كدنا نختنق هنا. "حسّان"

و"ربيع"، اللذان كانا يدخنان علبتين من السجائر يومياً جلسا على حافة الشباك، وأخذا ينظران على البهو الداخلي للعمارة. في الشقة الصغيرة أمامنا كان هناك عائلة تم إحضارها مثلنا ووضعوها في الشقّة، كانوا يريدون الذهاب إلى مدينة "ميونيخ". كان الأطفال غالباً ما يبقون في البلكونة يلعبون تحت الشمس. الوسيط "فادي" الذي كان معنا في القاهرة، يواسينا الآن على التليفون. كل يوم يحاول أن يعطينا أملاً جديداً، لكنه يموت في الليلة التالية. كان "عمّار" يصرخ على التليفون "إذا إنت مالك قادر تطلعنا على إيطاليا، فيا ريت تحاول تطلعنا من حفرة الوسخ اللي إحنا فيها على الأقل".

في المساء كان "علاء" و"حسّان" غالباً ما يهاجمان الحشرات بالفوط والبشاكير التي كانت بأيديهما ويلاحقونها أينما كانت، على الأبواب، على الحوائط وفي الدواليب. كانت الحشرات تسرح في البيت حتى أوقات متأخرة من الليل. حوائط هذا الحبس باتت مليئة بالضربات التي نفذوها على تلك الحشرات.

قضينا الساعات بالشرود والذهول، وقضينا الليالي بالنوم الخفيف والغفوات القصيرة. كانت أصوات السيارات تصل إلى أسماعنا ونسمع صداها. سمعنا أيضاً نباح الكلاب. هنا أيضاً يمكن سماع أصوات بائعي الخرداوات المعدنية وهم يدورون بالشوارع. لقد كان فراغاً وحشياً، كنّا نثبّت عيوننا على الجدران البيضاء وهي تعكس ظلالاً مجنونة تقذفها أشعة الشمس عليها.

"بحلف بالله إنو راح أتغير لما صير بالسويد"، قالها "حسّان" الذي كان يتشارك معي الغطاء. "بالسويد راح كون إنسان أفضل، راح بطّل دخّان، وألعب رياضة. بالسويد راح أبدأ حياة جديدة". كان يعلم مثلنا بأننا بعيدون جداً عن السويد في هذه الأيام أكثر من أي وقت مضى.

أصبحت محاولة نجاتنا شيئاً أشبه بورطة كبيرة وقعنا فيها. كان "عمّار" يحمل تليفونه طوال الوقت، لقد حذّرهم قائلاً، بأننا، جميعاً، كل المجموعة، سوف نغادر المكان من هذا الباب إذا لم تتّفق عصابات المهربين مع بعضها. يبدو أن

ذلك قد أحدث تأثيراً. في اليوم الرابع عند الظهيرة أخبرنا الوسيط "محمد" بأن هناك ميكروباص أبيض سوف يأتي إلينا ويأخذنا من هنا. عندما وصل الميكروباص الأبيض أسرعنا بالنزول واحداً بعد الآخر، نحمل حقائبنا على أكتافنا واضعين القبعات الصوف على رؤوسنا، آملين ألا يلاحظنا أحد من الجيران. في الدور الثاني سمعنا أصواتاً تخرج من البيت الذي كان بابه مفتوحاً بعض الشيء، بعد ذلك تزاحمنا داخلين إلى الميكروباص الذي كان يقف في الحارة الضيّقة ونوافذه مفتوحة. "إنتوا مين؟"، قالها لنا السائق بعد أن التفت إلينا من مقعده في الأمام. كان ينتظر عمّالاً مصريين ويريد أن يأخذهم إلى الورشة. لقد شاهد الخوف في عيوننا.

قدّمنا اعتذاراتنا وخرجنا ونحن في حالة من الرعب. "يبدو إنو خربطنا". قالها "عمّار" للسائق ونحن ننسحب من أمامه من الميكروباص. نحن الذين كنّا لا نلفت نظر أحد، أصبحنا فجأة مرئيين وموضع أنظار السيّارة؛ نتيجة هذه الهفوة. عُدنا بسرعة وصعدنا السلّم، مررنا بالبيت الذي كان لا يزال مفتوح الباب ولا تبدو فيه أيّة حركة في الدّاخل. مشينا واحداً بعد الآخر عبر الضوء الصادر من فتحة الباب أمامنا. في دور علوي آخر انتظرنا أمام باب الشقة التي كنّا فيها، كان "ربيع" يحدّق بعينيه المفتوحتين، بينما كان "حسّان" يتنفس بصعوبة واضحة. آخر الواصلين كان "علاء"، حاملاً معه المفتاح، وفتح لنا باب الحبس القديم إياه. أغلقنا الباب وراءنا وأحكمنا القفل، وبدأنا نسترق السمع بشيء من التوتر خوفاً من أي حركة صادرة من "بير السلّم". كل شيء كان هادئاً.

أخيراً جاء ميكروباص آخر، أبيض اللون على نفس الشكل. هذه المرة كان هو الصحيح. "أنا تعبان كتير" قالها "عمّار".

قام خاطفونا بأخذنا إلى الحرية، كانوا ثلاثة رجال في الثلاثين من العمر. اعتذروا منّا وحاولوا تصليح العلاقة بيننا بلطف، وقالوا إنهم لم يكونوا يريدون إيذائنا شخصياً، إنهم يحبّون السوريين ويحاولون مساعدتهم وتدبير شؤونهم، قالوا إنهم يكرهون المصريين، وبأن معنا الحق في ترك هذه البلاد. قال أحدهم

إن مصر قد أصابها العَفَنّ. بعد عدة كيلومترات من السير بالميكروباص، فتح لنا أحـدهم البـاب ونزلنـا، فوجـدنا أنفسنا في مكان ما على الكورنيش في الإسكندرية مجدداً. كان ذلك بعد أربعة أيام من الاحتجاز. انتظرنا "محمد" بضحكته المعتادة، لابساً بدلة بيضاء اللون وواضعاً قبّعة واقية من الشمس على رأسه. لم نكن سعداء كتلك اللحظة التي رأيناه فيها قبل ذلك.

"أهلاً وسهلاً بالعودة". قالها لنا وفتح ذراعيه بالترحاب. أطلق تلك الضّحكة التي توحي بأنه بائعٌ كفؤ. أخذنا إلى شقّة في عمارة عالية مطلة على شاطئ البحر مباشرة، كانت في الدور الخامس عشر وتحتوي على ثلاثة بلكونات. دخلناها ووقفنا ناظرين باتجاه البحر. كل هذا النور مقابل كل تلك العتمة التي كنّا فيها. لقد دفع المهرّبون من أجل إطلاق سراحنا فدية وصلت إلى مبلغ 35 ألف جنيه مصري، أي حوالي 3600 يورو. هذا ما أخبرنا به "محمّد" لاحقاً.



البحر لأول مرّة

لقد استعدنا حياتنا. كل شخص يستطيع الآن مرة أخرى أن يقرر بحرّية ماذا سيفعل. ولكن كل شخص منّا الآن صار يعرف أكثر بأن لحظة الحرية هذه غايةٌ في التقلب. ما العمل؟ ما الذي يجب علينا أن نقوم به من وظائف؟ لقد كانت هذه الرحلة كابوساً وهي لم تبدأ بعد. قضينا كل المساء في بلكونة واحدة من الشقة التي نحن فيها. كانت الإطلالة على البحر غايةً في الروعة.

صاحبنا المتهّور "جهاد" قرّر أن يتركنا. كان يريد أن يغير مجموعة المهربين الذين ارتبطنا معهم. قال إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا لنا شيئاً. لديهم مشاكل كثيرة مع خفر السواحل، ومع العصابات الأخرى أيضاً. قام بالاتصال بأحد الوسطاء الذي كان لديه تواصل مع شبكة تهريب منافسة أخرى. "تعال بدنا إياك" قالها له على التليفون. أخبره الوسيط بأن هناك سفينة سترحل الليلة. حمل "جهاد" حقيبته الصغيرة وأراد الرحيل. طلب منه "علاء" وترجاه أن يبقى معنا ولا يغادر. حتى "عمّار" طلب ذلك وقال له "إننا مجموعة واحدة وعلينا البقاء معاً". كل شخص سوف يحل محله، يعني بالنسبة لنا درجة أقل من الأمن، ودرجة أكبر من عدم الثقة. بالمقابل، إذا غادر أي شخص، سيؤثر ذلك على سلامة المجموعة ككل. لم يكن قرار "جهاد" واضحاً؛ حيث قام متردداً بوضع حقيبته جانباً. بينما حاول الآخرون التكلم معه وإرجاعه عن الرحيل، لم يكن يعرف حقاً ماذا سيفعل. في كل مرة يحمل فيها حقيبته ويتوجه نحو الباب، كان يرجع بعد دقائق ليعود ويجلس مجدّداً. كان "جهاد" كالحيوان البرّي الذي وجد نفسه في وضع محشور فيه. وهكذا مرَّ وقت قصير على هذه الحال وهو يذهب ويعود، إلى أن رحل أخيراً وتركنا. لن نراه أبداً.

"علاء" صمّم على الاستمرار في الرحلة، كان يشعر بالاختناق في مصر؛ لأنه سيبقى مواطناً من الدرجة الثانية دائماً. "حسّان" كانت تأخذه الحيرة والتردد. كان يشك بأن لديه الأعصاب الكافية للاستمرار وإكمال الرحلة إلى آخرها. قال

في النهاية "راح اعمل شو بيعمل علاء". إلا أن أخاه لم يكن راضياً عن ذلك، وصرخ في وجهه رامقاً إياه بنظرة حادة "لاء مو هيك". على "حسّان" أن يتخّذ القرار بنفسه؛ لم يعد يتحمّل أن يأخذ عنه المسؤولية أكثر من ذلك. "لازم تقرر إنت بنفسك، وتحسم قرارك شو بدك بالضبط". كان "حسّان" يصمت. "عمّار" يريد أيضاً إكمال الرّحلة. "بدي روح وكمل، لأني مابدي أندم بيوم من الأيام. إذا هون صار شي لبناتي ماراح سامح نفسي أبداً".

جلس "ربيع" مائلاً بجسده إلى جهة البحر. "الأمور الأسوأ صارت من الماضي، لازم نكمّل هالطريق للنهاية". أما "حسّان" فقد كان يتنهّد في ذلك المساء ويقول "لازم غيّر حالي لما أوصل عالسويد، بدي أتعلم، وبدي أشتغل. لازم أطلع من هون وروح عالقارب مباشرة".

بعد ذلك، نظرنا لساعات طويلة نحو البحر المظلم. مراكب الصيادين تتلألأ أمامنا مثل مصابيح بعيدة في الضباب. أحد هذه الأنوار قد يعود لأحد المراكب التي تذهب وتأتي وهي تنتظرنا منذ أيام على الشاطئ. في الفجر بدأت الأنوار تشرق رويداً رويداً، نوراً تلو الآخر. كان البحر يبدو بلونه الرمادي، جالساً وعارياً أمام هذه المدينة، بلا أية وعودٍ يحملها لنا.

نظر "عمّار" إلى المنتهى؛ هناك حيث تختفي آخر أنوار المراكب البعيدة على سطح البحر، ثم ذهب إلى سريره.

في هذه الأيام، هناك الآلاف من قوارب اللاجئين، التي تبحر نحو جزيرة "صقلية"، التي تبعد 1500 كيلومتر عن هنا. يحاول هؤلاء اغتنام الأسابيع الأولى من السنة؛ حيث يبدو الطقس ملائماً لذلك. في الربيع والخريف يكون البحر هنا في غاية الهدوء. خلال أشهر الشتاء عند سواحل أفريقيا الشمالية، يوجد عدد متزايد من اللاجئين الذين ينتظرون بداية السنة؛ حتى يقتنصوا الفرصة لركوب البحر. هناك من يقول إن عدد من ينتظر هذه اللحظة عند الضفة الجنوبية للبحر المتوسط يصل إلى 600 ألف إنسان. إلا أن وزراء الداخلية

للاتحاد الأوروبي يقومون بالضغط؛ وذلك بهدف جعل السلطات في ليبيا ومصر تفعل ما بوسعها، من أجل إيقاف هذا السيل من القوارب. يستخدمون أيضاً أساليب من الثّواب والعقاب؛ وذلك عن طريق المال الذي يدفعونه، والمال الآخر الذي يمنعونه. الحكومة المصرية أحسّت بأن هذه هي الفرصة؛ كي تثبت للأوروبيين بأنها قادرة على إظهار قدراتها في حفظ النظام؛ من أجل ذلك تتم ملاحقة اللاجئين، وتشديد الحراسة على السواحل، بالإضافة إلى احتجاز المئات كل أسبوع في مراكز مخصّصة لذلك.

وبينما تقوم أوروبا بإظهار الحُسنى للاجئين على الساحل الشمالي للبحر المتوسط، هناك من يقوم - نيابةً عنها - بحرب لا رحمة فيها على الساحل الجنوبي.

القارب الذي تمّ وضعنا فيه، كان يبلغ من الطول 24 متراً، ويُفترض أن يحمل على متنه 300 لاجئ. هكذا قال لنا رئيس عصابة المهربين، الذي قدّم نفسه بـ"أبو حسّان". قال أيضاً إنه هو مالك هذا القارب. لقد جاء إلى مكاننا الذي كنّا فيه؛ وذلك من أجل إعادة الثقة المفقودة بيننا في الفترة الأخيرة. كان رجلاً قصير القامة بلحية مشذّبة، قال لنا مباشرةً بدون مراوغة "الرحلة دي مهمة بالنسبة ليا، زي ما هي مهمة بالنسبة ليكو". لقد كانت لديه مخاوف من أن نغيّر قرارنا وأن نذهب إلى مهرّب آخر. وأكمل قائلاً إنه صرف نقوداً كثيرة من أجل ذلك. كان يقصد الفدية التي دُفعت من أجل تحريرنا، وأجرة الميكروباص الذي نقلنا، بالإضافة إلى أجور إقاماتنا المتنقلة بين شقّة وأخرى. منذ أسبوع، أحضر ألف رغيف خبز إلى القارب، من المؤكد أن تكون تلك الكمية قد فسدت الآن.

يمكن القول بأن هناك أربعة مهربين كبار قاموا بتقسيم السوق المصري بينهم. أحدهم هو "أبو حسّان". بالإضافة إليه؛ هناك "الدكتور" و"السيد حنفي" و"أبو أحمد". في السنة الماضية، قام هؤلاء بأغلب الصّفقات الكبيرة مع زبائنهم من اللاجئين. لوحده قام "أبو حسّان" بترحيل 35 قارب إلى إيطاليا. رحلتنا كانت بالنسبة إليه افتتاحاً للموسم هذه السنة. إن مصير رحلتنا سوف يحدد مصير

باقي الرحلات طوال الموسم؛ كما كان يقول.

وَعَدَنا الرّجل بأن نقاط المراقبة التي تعود إلى خفر السواحل سوف تسمح لنا بالمرور. "دول من طرفنا". لقد دفع مقابل ذلك 30 ألف يورو إلى الجنود والضّابط المسؤول عنهم. يأخذ الضّابط نصف المبلغ، بينما يذهب الباقي لجميع العناصر التي تحته. لكل راكب، يطالب خفر السواحل بـ100 يورو، ثم يحصلون على المبالغ التي تم الاتفاق عليها، عندما تستطيع القوارب الوصول إلى المياه الإقليمية. رغم ذلك؛ يمكن القول: إن المهربين أنفسهم - في هذا الوقت - هم الأعداء الحقيقيون. "ده بيخرب كل الشغل في السوق"؛ فالكل يريد أن يكون له النصيب الأكبر من هذا "البيزنس" المربح؛ ولذلك يقومون بتخريب عمل بعضهم، والإبلاغ عن طرق الرحلات عند الشرطة؛ كما أخبرنا "أبو حسّان". فمنذ يومين، قام قبطان سفينة كبيرة نسبياً بالرّجوع إلى الشاطئ مع كل الراكبين الذين كانوا معه، وقام بتسليمهم إلى خفر السواحل؛ وذلك لأن أحد المهربين المنافسين قام بدفع المال له مقابل ذلك؛ وهكذا فإن الخسّارة التي تصيب أحدهم هي مكسب لآخر. بهذه الأعمال يقومون بتلميع صورتهم، عبر إفساد سمعة منافسيهم بشكل كبير. ولكن هذه الأمور سوف تصبح من الماضي الآن؛ لأن هناك اجتماعاً مرتقباً سيجمع المهرّبين الأربعة الكبار في الإسكندرية، وسيتم فيه الاتفاق فيما بينهم.

سأل "ربيع" رئيسَ عصابة المهربين وهو يستعد لمغادرتنا "فينا ناخد شناتي السفر معانا؟". أجاب "أبو حسّان" متهرباً من إجابةٍ واضحة "إنتو معاكو شنط كتيرة"، وتابع قائلاً "حتى بالطيارة مش حتقدروا تاخدوا معاكو كل الحمل دا". بعد ذلك سأل "علاء" عن المدة المتوقعة التي ستستغرقها الرحلة، فأجاب: "ست أيام"، ثم قال" دي ولا حاجة علشان تروحوا للجنّة هناك".

في خلال أيام، اضطررنا مجدداً إلى تغيير الشقة التي أنزلونا فيها ثلاث مرات - كانت مرتان من بينهما حيث أقمنا في العمارات العالية تلك - وذلك لأن المؤجرين كان لديهم مشاكل مع الشرطة، وكانوا يخافون من حدوث شيء. بعد

ذلك أخذَنا المهربون إلى شقّة في نهاية الشارع المُطلّ على الكورنيش الرئيسي للمدينة؛ تقع في عمارة عالية في الدور الثاني عشر. لم يكن هناك أية بلكونة أو طلّة جميلة على البحر ولكن كان بها حمّام، وبها ماء ساخن على الأقل.

كل تبديل بين الأماكن، يعتبر حدثاً يشكّل خطورة كبيرة علينا. بدت الأمور وكأننا تحت أعين عصابات أخرى معادية تحوم حولنا دائماً، من أجل اقتناص الفرصة لمعاودة الخطف. كان من الممكن رؤية جواسيس عصابات المافيات الأخرى والأشخاص المتعاونين معهم وهم يقفون على الشارع المواجه للعمارة التي نحن فيها، كانوا رجالاً نحيلين يتسكّعون هنا وهناك، ويحاولون الظهور وكأنهم يفعلون أشياء عادية، حاملين سجائرهم في أيديهم.

واجهتنا نحن - المراسلين الصحفيين - مشكلة، كانت هي الأكبر في رحلتنا هذه؛ إنه "إسماعيل"، وسيط ملك التهريب "أبو حسّان". الرّجل صاحب القوة و"الغُرَز" ظهر أمامنا فجأة، ومدّ يده للمصافحة وحيّانا باللغة الروسية. أنا ومرافقي المصوّر الفوتوغرافي "ستانيسلاف" أصولنا من إحدى جمهوريات القوقاز، هكذا كانت تقول الأسطورة التي ستنقذ حياتنا. وبينما كان "ستانيسلاف" يجيد الروسية بطلاقة، لم أكن أعرف شيئاً عنها. غالباً ما كان يحاول الحديث بدلاً عني عندما نكون في وجود "إسماعيل". كنت أحاول الهروب من الموقف، والتّمثيل بأنني متعب وأريد النوم قليلاً. أحياناً كنت أفعل ذلك لدقائق معدودات، وفي أحيانٍ أخرى كنت أقضي كامل اليوم في وضع كهذا؛ وهكذا بقي جهلي اللغوي غير مكشوف.

صاحبنا "جهاد" المتهوّر الذي غادرنا، كان يتصل على التليفون ويقول إن المهربين الجدد قد قاموا بالكذب عليه أيضاً. لم يستطيعوا إقناع خفر السواحل بالسماح لسفن اللاجئين أن تغادر. هم أيضاً لم يكن باستطاعتهم ذلك. حتى "جهاد" كان ينزل في شقة قريبة منّا هنا في الإسكندرية، ولا تبعد سوى بضع حارات عنّا.

كي يكتمل حظنا السيء، حتى الطقس بدأ يعمل ضدنا. جاءت ريحٌ قويةٌ من الغرب، كانت تضرب بقوةٍ باب النافذة في الدور الثاني عشر. حاول "عمّار" إغلاقها باستخدام قطعة من القماش. كنّا نستلقي على السجاد و"البطانيات"، مختبئين تحت أغطية سميكة. يبدو أن هناك منخفضاً جوياً أمام أوروبا. لم يكن مجرد التفكير في الإبحار ممكناً، نعلم ذلك حتى بدون الكلام المعسول الذي كنّا نسمعه من مهربينا.

"حاسس حالي متل الحمار"، قالها "ربيع" غاضباً، وقال بعدها "طول اليوم بس نوم، أكل، خراء، نوم، وهيك".

كانت الريح تصفّر في الليل بشكل أقوى، وتدخل بحدّة من خلال إطارات النوافذ. في التليفزيون الذي كنَّا نجلس حوله، كنّا نشاهد "المستر إكس"، وهو فيلم فانتازيا يحكي قصة مخلوقات على شكل مسوخ، تحاول أن تكون في الخفاء، والبقاء على قيد الحياة في مجتمع بشري. فجأة سمعنا طَرْقاً على باب شقتنا.

تسمّر "عمّار" و"علاء" على البطانية التي كانا يجلسان عليها، بينما حاولتُ الاختباء في غرفة النوم، بعد أن استلقيت على سرير ووضعت غطاءً عليَّ، تحسّباً لأية لحظة يأتي فيها "إسماعيل"، المهرّب الذي يتكلّم الرّوسية. ذهب "ربيع" نحو الباب متردداً. كان الطَرْق يزداد قوة على الباب، لم نكن مستعدين فعلاً ولا متعودين على هذا الخوف. من المحتمل أن تكون الشرطة هي من بالخارج. أو أن أحداً من طرف المافيات المتنافسة، قد علم بأمرنا وجاء كي يخطفنا مرة أخرى. فتح "ربيع" باب الشقة قليلاً ثم قام بإغلاقه بسرعة.

في الخارج، كان "محمد" واضعاً قبّعته الواقية من الشمس على رأسه. أحضر معه رجُلين إلينا، أحدهما كان نجّاراً والآخر نحّاتاً. كنَّا نعرف الرجلين قبل ذلك. كانا يسكنان مع العائلة التي تريد الذهاب إلى مدينة ميونيخ. وهما أيضاً من جنوب سوريا، مثل المرأة الأم التي كان لديها ابنتان. قام المهرب بالهمس

بكلمات معيّنة في أذن "عمّار"؛ بأن النجار قد قام بالتلصلص على إحدى البنتين، وكان يلاحقها بنظراته في الحمّام. "لازم نبعدهم عن العيلة دي، خلي عيونكو عليهم".

منذ الآن، سوف يكوّن هذان الشخصان فريقاً خاصاً بهما. النحّات صاحب الظهر المحني، كان يضع قبعة من الجينز وعليها شعار حديدي على رأسه، بينما كان النجّار ذو الشنب الكثيف يلبس تي-شيرت يبدو فيه مفتول العضلات. كان الاثنان يصنعان الشاي لوحدهما فقط دون مشاركتنا فيه، يتهامسان ويتسامران فيما بينها فقط، وكأنهما يحاولان تجنب الحديث معنا، ونحن أيضاً حاولنا ذلك، خاصّة "علاء". كان ينظر إليهما بعين الريبة والشك. لم يكن يجلس أبداً بالقرب منهما، ويحاول البقاء بعيداً عنهما قدر الإمكان.

كان يقول عنهما "هالناس مو مناح".

لكن بعد ذلك، وبعد أن قضينا أسبوعاً جيداً، حدث شيءٌ مفاجىءٌ. جاءت الميكروباصات الصغيرة، وحملتنا خارج مدينة الإسكندرية إلى مكانٍ على الشاطئ. ركضنا تجاه البحر بقدر ما استطعنا.

الشاطئ مرّةً ثانية

"يلا امشوا يا ولاد ال#@^%$". هكذا صرخ فينا الولد المراهق الذي كان يحمل عصا يسوقنا بها، حتى شعر ذقنه لم يكن قد نَبَت بعد. "امشوا".

كان الشاطئ مسطّحاً ورملياً. وبعد أن وصلنا إليه، جاءت أوامر لنا بأن نستلقي على الأرض جميعاً. قام مرافقنا بتقسيمنا إلى ثلاث مجموعات، كل مجموعة بها عشرون شخصاً من اللاجئين. طلب منّا أن نكون متباعدين، أن يفصل بيننا حوالي متر. لم يكن "حسّان" يستطيع الحركة برشاقة بحيث ينزل على ركبتيه بسرعة، كان أخوه يشدّه من الجاكيت حتى ينزل إلى الأسفل.

بشكلٍ عام، مرحلة الشاطئ هي المرحلة الأكثر خطورةً في محاولة الوصول إلى أوروبا. يجتمع على الشاطئ كل النفايات و"الزبالة". هنا تماماً ملتقى أكبر لصوص البر والبحر. في هذه اللحظة كنّا جميعاً في وضعٍ غاية في الحرج والمهانة. غالباً ما يجد اللاجئون أنفسهم تحت سيطرة اللّصوص والعصابات التي تريد سرقتهم وضربهم ونهبهم. في بعض الأحيان، يكون المساعدون أنفسهم غير راضين عن قيمة العمولة التي سيحصلون عليها من المهربين الكبار؛ لذلك يقومون بسرقة زبائنهم من الرّكاب هنا. خفر السواحل يمكن أن يظهر في أية لحظة، من جهة البحر أو من جهة البرّ، وغالباً ما يكون معهم كلاب بوليسية خطيرة. رأينا أمامنا عدداً من المصانع الضخمة التي تتلألئ بأنوارها وتبعث ضوءً مبهراً. إنه خليج "أبو قير". أحد أكبر الموانيء الصناعية في مصر. خلفنا كانت تبدو اليابسة التي تظهر بألوان جهنم من الأحمر والبرتقالي والأصفر. كان البحر أمامنا منيراً بالمصابيح التي تنتشر على سفن الشحن الواقفة هناك. كان الدخان ينبعث بلون يبدو متوهجاً في الأفق.



كان "علاء" ينادي بحرقة على البحر الممدود أمامه "أنت أب لكل الأيتام".

اتصل "عمّار" بزوجته، وأخبرها بأننا نقف الآن أمام البحر، ثم قال وهو ممدّد على الرمال "ما منعرف ايمتى راح ضل أقدر اتصل فيكي من التليفون، إذا ما سمعتي مني شي، اعرفي إننا أبحرنا". في الواقع، وجدنا قاربين يتّجهان نحونا. الشباب من اللاجئين كانوا هم من تصدّر المجموعة المتجهة إلى البحر، حاولوا تثبيت أنفسهم في هيكل السفينة في الأمام، لم يفلحوا في بادىء الأمر ووقع بعضهم، أعادوا المحاولة من أجل تثبيت أنفسهم والتعلّق بها. بقي "عمّار" متراجعاً، كان يبدو كالمشلول. "عمّار" يخاف من التجمعات، ومن الوجود بين عدد كبير من الناس. كان يريد أن يكون آخرَ من يصعد، إلا أن المتأخرين غالباً ما يبقون على الشاطئ ويُتركون هناك. من حُسن الحظ، اكتشف وجودنا طاقمُ القارب الثاني، الذي كان سيبحر مع قاربنا أيضاً .. كي نستطيع الوصول إلى القارب؛ توجب علينا النزول في الماء الذي كان يصل إلى صدورنا. حاولت دفع البدين "ربيع" أمامي، بينما كان هناك من يحاول سحبي من فوقي، وجدت يداً



تمتدّ نحوي، أخذت بها وصعدت إلى أعلى، تم سحبي إلى قاع القارب حيث كان "عمّار" على ركبتيه وقد انقطع نفسه. بالقرب منّا جلست "بيسان" القرفصاء، تلك الفتاة المصابة بمرض السكري. كانت تنظر نحو الشاطئ وهي تبكي وتصرخ. صوتها كان يتعالى، حتى كاد يغطّي صوت الموتور.

وقفت أمها بين الأمواج بحجابها الأسود. رفعت يديها وسط الماء. كانت تنادي على من في القارب في الخلف، في حين يحاول الرجال قيادته نحو البحر. قامت الأمواج بجرف حقيبة الظهر التي تحتوي على حبوب الأنسولين، كانت "بيسان" تمسك بها إلى أن أخذتها موجة وقذفت بها من يدها إلى البحر. كثيراً ما يحدث أن تنفصل العائلات عن بعضها في هذه المرحلة من الصعود إلى القوارب. وغالباً ما نجد أطفالاً يصلون إلى إيطاليا وحدهم دون أبوين. بمجرد أن يصل المرء إلى السفينة لا يكون هناك مجال للرجوع.

النحّات الذي أتانا آخر شخص وسكن معنا في الشقة، وعد الأم بأن يتولى أمر الطفلة "بيسان"، وأن يحملها عند العبور بالماء. كان يعرفهم وسكن معهم أسابيع طويلة في الإسكندرية. اطمئنوا له لأنه واحد من الأشخاص القليلين الذين كانوا يرتدون جاكيت نجاة من الغرق. إلا أنه ترك الفتاة لوحدها في الماء. لقد خاطر بها حتى يحجز لنفسه مكاناً على سطح القارب. قام طاقم القارب الثاني بسحبها معهم لحسن الحظ، ولكنهم نسوا أمّها في الماء.

قامت الطفلة بالنحيب والصراخ بشكل هيستيري؛ مما أجبر الرجال على العودة بسرعة وسحب الأم معهم، بالإضافة إلى التقاط الحقيبة التي بها دواء الأنسولين من الماء. هذه الحقيبة التي كانت تعني للفتاة مسألة حياة أو موت، حضنتها بقوة طوال الرحلة. بعد ذلك شققنا أمواج البحر والرذاذ يتطاير نحونا. كنّا نسمع كيف كانت العارضة الخشبية تصدم سطح الماء، وكيف كانت الطفلة تستمر في البكاء، بلا توقف. غضب المهربون منها وضاقوا ذرعاً بصراخها وطلبوا من الأم أن تخفف من فزع ابنتها. توجّه "عمّار" إلى الطفلة وقال لها "إنتي خايفة شي عمو؟"، أجابته "لاء مالي خايفة". بدأت تهدأ قليلاً، ثم قالت بعد ذلك "مالازم خاف أنا، إزا خفت ممكن تيجي هجمة سكر وتقتلني".



بدأ الشاطئ يبتعد متمايلاً في الأفق. لم يكن قاربنا الثاني ممتلئاً باللاجئين بعد، كان فيه تسعة أشخاص فقط؛ إذ قام الأغلبية منهم بالاندفاع إلى القارب الأول. قام أحد أفراد طاقم القارب بمراقبة إنزال السارية، شخص آخر كان يجلس أمام الموتور، بينما وقف بجانبه رجلٌ بشكلٍ قياديّ على مقدمة الحجرة الصغيرة، بدا أنه القبطان الذي يقود الرّحلة في أمواج البحر، لكنه بعد قليل انشغل في مكالمة تليفونية على الموبايل. "هو فين ابن ال#@^%$ دلوقتي؟"، كان يقولها بعصبيّة وهو ينادي على شخص آخر من الطاقم. حاول جاهداً التواصل مع قبطان السفينة الأم التي ستحملنا من على متن القوارب. قال القبطان إنه سيكون في الموقع المتفق عليه خلال 15 دقيقة. في هذه اللحظة

بدأ موتور القارب بالارتجاج فجأة، سمعنا خشخشة، ثم توقف عن العمل نهائياً. للحظة وجدنا أنفسنا وسط هدوء كبير.

حـدّق اللاجئون في أفراد طاقم القارب. قام الرجال برمي الهلب في الماء، وحاولوا القيام بشيء ما من أجل جعل الموتور يعود للعمل، حاولوا تشغيل الموتور عن طريق سحب القشاط المطّاطي مرةً بعد أخرى بشكلٍ متوالٍ. قام قائد الفريق بفتح غطاء الموتور، بينما قام شخص آخر بالتواصل مع قبطان القارب الثاني الذي كان يبحر بجوارنا منذ فترة، قبل أن يتجاوزنا ويختفي في الظلام. طلبوا منه أن ينزل ركاب القارب ليعود ويأخذنا من على متن هذا القارب.

فجأةً اهتزّ الموتور وبدأ بالعمل.

مجدداً بدأ القارب بالعبور بين تلال من الأمواج. هنا قال الشخص الذي كان مكلّفاً بالمراقبة من أعلى إنه رأى السفينة الأم. حوالي خمس دقائق ونصل إلى المياه الإقليمية؛ حيث لا يعود بإمكان خفر السواحل الإمساك بنا. صعد أحد المهربين إلى سطح القارب وطلب منّا أن نعطيه كل النقود المصرية التي كانت معنا، "إنتوا مش هاتحتاجوها بعد كده".

"آهي هناك"، أشار الرجل بعد ذلك إلى الأضواء المتلألئة في جهة محددة من البحر. في مكانٍ ما هناك، توجد السفينة الأم. استلقى "عمّار" على ظهره واضعاً يديه خلف رأسه، وناظراً بشكل هاديء بابتسامةٍ خفيفة نحو السماء. قبل أن تبدأ الرحلة، تناول جرعتين من الحبوب المهدئة التي تدعى "زاناكس". ضحك "ربيع" ثم مدّ قبضته وضرب برفقٍ على ساق "عمّار"، كان مشرقاً بالبهجة. للمرة الأولى داعبتنا هذه الفكرة: لقد نجحنا. بالنسبة لنا نحن - المراسلين الصحفيين - شعرنا أيضاً بذلك الشعور، إذ من الصعوبة أن تنفصل مشاعرنا عمّا يشعر به اللاجئون في هذه الرحلة. إيطاليا أصبحت قريبة المنال، السويد وألمانيا، الحياة الجديدة، الأحلام، كل ذلك الذي تمّ التخطيط له منذ شهور طويلة. فجأةً

وإذا بنا نقترب من جزيرة، طلب منّا المهربون أن ننزل من على القارب.

قفزنا واحداً تلو الآخر في الماء.

"ما بعرف شو راح يصير معنا يا رونالدا"، قالها "عمّار" بعد قليل على تليفونه وهو يكلم زوجته، لحسن الحظ لم يبتّل الموبايل. "نحن الآن على جزيرة، نزلونا من القارب وراح. ما بعرف شو عم بخططوا".

حتى ركّاب القارب الأول قد نزلوا هنا معنا أيضاً، التقينا بـ"علاء" و"حسّان" و"عزّوز". قال لهم طاقم القارب بأن القوارب سوف تأتي قريباً كي تأخذنا جميعاً. جلسنا جميعاً كمجموعة على مرتفع صغير. كان الجميع يرتعش من البرد والبلل وتصفعهم الريح. قام "علاء" بفتح كيس بلاستيكي كبير، استلقى على بعض الشجيرات الصغيرة التي تملأ المكان هنا، لبس الكيس وغطّى به قدميه وبطنه. قام "عمّار" بفعل نفس الشيء، وزاد عليه بأنْ وضع غطاءً سميكاً على وجهه؛ بحيث لم يعد يظهر منه إلا فمه. قام "عمّار" بالحديث مع "أبو حسّان" ملك التهريب بلا توّقف، وبحدّةٍ واضحة على التليفون. وعد الملك بأن يرسل قوارب جديدة لنا.

الجزيرة التي وضعونا عليها تُدعى جزيرة "نيلسون"، عرفنا ذلك لاحقاً. هي جزيرة صغيرة بطول 300 متر وعرض 100 متر تقريباً. هنا في هذا المكان قام الأدميرال البريطاني "نيلسون" عام 1798 بضرب السّفن الفرنسية التي كانت تتبع لـ"نابليون". عندما بدأ القمر يطلع من بين الغيوم شيئاً فشيئاً، سطعت أضواء مبهرة على الأرض، وبدت الرمال مزيّنة بضوء فضي غاية في الروعة. بدت هذه الجزيرة وكأنها لا تنتمي إلى عالم الأرض، ولا إلى عالم السماء. شيءٌ ما بين العالمين، أزال كل حدودٍ بينهما. يشعر المرء هنا وكأن الأرض سوف تتكسّر تحت أقدامنا.

مرةً أخرى جاء المهربون، وأحضروا معهم قوارب كبيرة هذه المرة. كل الركاب هجموا للصّعود إلى القوارب، نزلوا بالماء، بدون اعتبارٍ لأي شيء يخصّهم،

يدفعون أنفسهم على أرض طينية لزجة، معلقين أنفسهم على حواف القوارب، جميعهم هكذا دفعةً واحدةً على طرفٍ واحدٍ من القارب؛ كاد هذا الحال أن يؤدي إلى قلب القارب كله في الماء. هنا تكفّل المهربون بتنظيم الموقف عبر ضرب الناس اليائسين؛ حتى لا يقعوا هم أنفسهم أيضاً. بقي "عمّار" مع عائلة الطفلة "بيسان" على الشاطئ مُظهراً شيئاً من التخوّف، كان خائفاً من الزحام والتواجد مع الناس مرةً أخرى. انطلق القارب وهو محمّل بالبشر نحو البحر المفتوح أمامنا، إلا أنه عاد ورجع بعد ذلك بقليل. نحن الذين بقينا على الشاطئ، لم نستوعب بسرعة ما الذي حصل في أول الأمر. لا بد أن هناك خطأً ما.

هنا رأينا قاربين مطاطيين سريعين تابعين لخفر السواحل وقد ظهرا خلف قارب المهربين. رأينا فقط ظلّين يتحرّكان نحونا مزودين بالأنوار الحمراء التي تلمع بالتبادل. قام المهربون بالتّخلص من اللاجئين عبر رميهم من على المركب إلى المياه مباشرة، استخدموا الركل والضرب ورموا حتى الحقائب. رجعنا جميعاً ومشينا عبر المياه نحو الجزيرة الصغيرة، آملين بجنونٍ كبيرٍ أن نجد هناك مكاناً ربما نختبئ فيه.

"خلصت القصة، ها؟"، همس بها "عمّار" في أذني ونحن مختبئون في حفرة عميقة، نحن وأربعة أشخاص آخرون.

مجموعةً بعد أخرى، قام الجنود بإجبارنا على الخروج من جحورنا.



قارب المهرّبين وهو محمّل باللاجئين قبل اعتقالهم مباشرة على جزيرة نيلسون

في الفترة الماضية، كان هناك الكثير من اللاجئين الذين تعرّضوا لإطلاق النار أثناء محاولات الإمساك بهم. البعض منّا حاول الاختباء بين الصخور وسط الأمواج، إلى أن تغلّب البرد عليهم واستسلموا لقدرهم. قامت عائلة الطفلة "بيسان" بحشر نفسها في حفرة. أما الآخرون فلم يسعفهم الوقت إلا لتمديد أنفسهم على الأرض محاولين عدم الظهور قدر الإمكان. وصل الجنود إلى الجزيرة، وبدأوا بتمشيطها للبحث عنّا، حاملين معهم مصابيح يدوية. اقتربوا جداً وطلبوا منّا جميعاً الظهور والخروج من مخابئنا.

تسلقت مع "عمّار" الحفرة التي كنّا فيها، بدأنا بالخروج منها بشكل بطيء، عندها أطلق الجنود بعض الطلقات النارية من البنادق التي كانوا يحملونها كنوعٍ من التحذير. ركعنا على ركبنا، وقاموا بإصدار أوامر لنا بشكل غاضب، لم أفهم تلك الأوامر وكان "عمّار" يترجم لي وهو مرعوب. أجبرونا على الوقوف في صف واحد، وطالبونا بإنزال رؤوسنا نحو الأرض. كانت وضعيةً غايةً في الإهانة. طلبوا منّا بطاقاتنا الشخصية، وقالوا لنا بأن نضع أياً منها - في حال وُجدت - على رؤوسنا. واحداً بعد الآخر بدأوا بركلنا بأحذيتهم على ظهورنا.

هكذا انتهى حلم تلك الليلة.

"إنتوا افتكرتوا إنكو بقيتوا في صقلية؟!"، قالها الضابط بسخريةٍ وهو يصرخ في طاقم السفينة الذين توّجب عليهم إرجاعنا إلى الشاطئ. كان الضابط يبدو سعيداً وراضياً جداً عن نفسه. لا شك بأنه سوف يحصل على مكافأةٍ، أو مدحٍ جيّدٍ مقابل ما فعل.

في السجن لأول مرّة

السجن لأولئك الذين لم ينجحوا في السفر مثلنا، عبارة عن مكان فارغ مساحته حوالي 35 متراً. توّجب علينا أن ندخل إليه على شكل صفين متقابلين. كانت آخر مرة تذوّقنا فيها طعم النوم منذ يوم ونصف. صرخ فينا الضابط هناك "انزلوا على ركبكم، أنا هاوريكو أسود أيام حياتكو!، اسمعوا الكلام اللي بقول عليه". بعد ذلك تم أخذنا إلى عنبر جماعي. مكتب الأمن الوطنى في مصر هو الذي احتجزنا الآن؛ هو جهاز يشبه مكتب الشرطة الفيدرالية في الولايات المتحدة الأمريكية (إف بي آي) ولكن بالطّبعة المصرية. لم يوضح لنا أحد ما هي التهمة الموجهة إلينا، ولا كيف ستسير القضية أو الإجراءات. لقد قاموا باحتجازنا في هذا المكان وفقط. ارتمينا جميعاً على الأرض الخالية؛ لأنه لم يكن هناك أيّ سرير. قمنا بوضع آخر قطع الملابس التي لم يصبها البلل على أجسامنا؛ وذلك لعدم وجود أغطية أو بَطّانيّات. في ساعة متأخرة من الليل، قام بعض الأصدقاء الذين اتصلنا بهم بإحضار بعض البَطّانيّات الصوفية، بالإضافة إلى قليل من المواد الغذائية.

في هذه الأوقات، هناك العديد من مراكز الاحتجاز الخاصة باللاجئين السوريين في مناطق متعددة على الساحل. المكان الذي كنّا فيه، بدا وكأنه الأفضل حالاً بينهم. في مراكز أخرى، يقومون بوضع أكثر من 200 شخص في مكان مشابهٍ، بلا طعام وبلا مياه صالحة للشرب.

في البداية، كنّا حوالي 35 شخصاً في غرفة الاحتجاز، إلا أنهم عادوا وحشروا أكثر من 60 شخصاً معنا هنا. مع تزايد عدد المجموعات التي كانوا يدخلونها، ترتفع درجة الحرارة في المكان بشكل واضح. من ضيق المكان، كنّا ننام كتفاً إلى كتف. هذا المكان يمكن اعتباره ملتقى تجمّع الطبقة الوسطى من السوريين؛ هنا تجد شخصاً صاحب مصنع نسيج من "درعا" مع زوجته وطفليه الصغيرين، موظفاً في مصنع شوكولاتة من "داريا" مع ابنتيه، شاباً مصوراً كان

يعمل في التليفزيون الرسمي السوري، وعدداً آخر من المعلّمين والمهندسين. عـائلات كثيرة تشتت شملها عند الشواطئ، بعضها استطاع الوصول إلى القوارب، البعض الآخر تم اعتقالهم وهم مازالوا على الشاطئ. حتى أن البعض استطاع الوصول إلى السفينة الأم الكبيرة في وسط البحر، إلا أنهم اضطروا إلى العودة؛ بسبب عدم وجود طعام وشراب يكفي جموع اللاجئين الذين وصلوا هناك. قالوا لنا روايات عديدة عن كيفية تخلي المهربين عنهم على أطراف الشاطيء، وعن خوفهم من أن تُغرِق مياه البحر المكان في أيّة لحظة، وكيف قام صيّادو السمك بأخذهم من على الجزيرة مقابل مبالغ مالية، وأنهم بعدها قاموا بتسليمهم إلى الشرطة.

كان أصغر سجين موجود، يبلغ من العمر خمس سنوات، تم اعتقاله مع أختيه.

في كل ليلة، يصرخ السجن بأصوات الناس الموجوعة. من هنا، يمكن سماع صراخ أشخاص وهم يُضربون بقسوة، وأصوات الآخرين الذين يضربونهم. عندما سقط حكم الديكتاتور "حسني مبارك" سنة 2011، كان هذا المبنى، هو الأول الذي اقتحمته الجماهير الثائرة في مدينة الإسكندرية. قامت الجماهير بالسيطرة على الحراس وتحرير المعتقلين، ثم نهبوا محتويات السجن وقاموا بحرقه. في ذلك الزمن، كان هذا المركز له شهرةٌ كأحد أكثر المراكز التي يُمارس فيها التعذيب الوحشي على نطاق واسع. خبراء التعذيب الذين كانوا مسئولين في تلك الفترة رجعوا جميعاً إلى مراكزهم الآن، كانت استراحةً قصيرةً فقط. من السجن، شاهدنا عديداً من عمّال الدهانات وهم يعملون بعصبية نسبياً في أدوار عديدة من المبنى؛ كانوا يقومون بطلاء الجدران والأماكن التي أتى عليها الحريق؛ حتى لا يبقى أي أثر للحريق أو الأضرار. كانوا يدهنون الجدران ويبدو عليهم عدم الاهتمام بما يسمعونه من صراخ السّجناء من حولهم. "من يتربى في مصر، يتعلم مع الوقت أن يتجاهل هذه الصرخات" قال ذلك أحد الأشخاص الذين تم تكليفهم بمراقبتنا هنا.



الفتاة "بيسان" وهي تتوسط اللاجئين النيام في السجن بعد اعتقالهم في الإسكندرية

قام "عمّار" بتجهيز مكان آمن لنا على مساحة بضعة أمتار تحت النافذة. بقينا هنا أيضاً كمجموعة واحدة. كان "حسّان" يبدو صامتاً كل الوقت، ينام كثيراً، بل إنه ينام أغلب الوقت. "علاء" يتحدّث بشكل نادر مع أخيه الأصغر. قال "علاء" عن أخيه "ما توقعت إنو يكون هيك رخو وما قادر يتحمل، ما كان لازم جيبو معي". "حسّان" لم يكن يستطيع المشي ولا يجيد السباحة، وفكرياً هو شخص بسيط جداً. "أخي لسا ما عرف شي من الحياة الحقيقية". كان "علاء" يساعد العائلة في تدبير أمور المحلات التجارية التي يملكونها، ولكنه لم يكن عليه العمل بشكل جاد أبداً. هذا العمل كان يقوم به "علاء" مع العمال التابعين له. لم يكن اهتمام "حسّان" إلا بالألعاب الإلكترونية التي يملكها.

كان الأخوان يستلقيان بجانب بعضهما، كان الاثنان يستمتعان بالحديث مع أي شخصٍ إلا بالحديث مع بعضهما؛ إذ لم يكونا يتحدثان إلى بعضهما أبداً. ولكن بعد مرور عدد من الأيام، وبعد أن التزم "حسّان" ذلك الصمت التام، نظر "علاء" إلى أخيه مُظهراً شيئاً من اللين، ولكن من دون تعاطف وقال له "أخي، إنت ناوي تمرضني شي؟".

بدأ الموظف - ببدلته البنيّة - بالتوجه نحونا في غرفة الاحتجاز. دخلنا للتحقيق واحداً تلو الآخر. لم يقدم نفسه لنا، وكان يلعب بصوته بشكل مسرحي واضح. التحقيق هنا عبارة عن أجواء من الخضوع والإهانة. بقي "عمّار" ساعتين عند المحقق. وبمجرد أن خرج من غرفة التحقيق أصبح شخصاً آخر. "عمّار": هذا الشخص الذكي الماهر الذي كان يشكّل دعماً أساسياً لعائلته، والذي كان يحافظ على المرح في طباعه قبل الاعتقال، بالإضافة إلى الشجاعة في إدارة حياته؛ ظهر لنا شخصّاً محطّماً. كان يجلس بحسرة، ويغطي نفسه بشكل كامل، فيما يبدو على وجهه البؤس.

اضطررنا نحن - المراسلين الصحفيين - أن نقول الحقيقة عن أنفسنا، ونكشف هوياتنا أثناء التحقيق. ومثل الآخرين، وُجّهت لنا تهمٌ بأننا نحاول الخروج من البلاد بصورة غير شرعية. دخلت السفارة الألمانية والسفارة التشيكية على الخط واهتمت بأمرنا؛ "ستانيسلاف" كان تشيكي الأصل. بعد تسعة أيام تم ترحيلنا إلى تركيا.





الترحيل

كان البحر ظاهراً أمامي من نافذة المقعد الذي يحمل الرقم (8). أقلعت بنا الطائرة التابعة للخطوط الجوية التركية من مدينة الإسكندية قبل قليل. هذه هي الرحلة التي تم فيها إبعادي عن مصر.

في المطار، سمحوا لنا - أنا و"ستانيسلاف كروبر" - بإبقاء أيدينا حرّة من الكلبشات. قام رجال الشرطة بإحضارنا من السجن إلى غرفة الاحتجاز الخاصة بالترحيل في المطار مباشرةً. كان معنا هناك شابٌ أصوله من "بنجلاديش"، رأيته يستلقي على قطع كرتونية موضوعة على الأرض، وينتظر دوره أيضاً من أجل أن يُرَحل خارج البلاد مثلنا. كان يرتعش بكامل جسمه من مرضٍ يبدو أنه أصابه، ولم نعرف ما هو بالضبط. بعد ذلك أعطونا بطاقاتنا الشخصية في الصالة المخصّصة للمسافرين المغادرين. خلال ثوانٍ معدودات، جعلت منّا هذه الأوراق أناساً آخرين. لقد تحوّلنا بسرعة مدهشة من الحالة البائسة التي كنّا عليها كمعتقلين منذ قليل، إلى أناسٍ يملكون امتياز السفر إلى وجهات متعددة، تماماً كغيرنا من المسافرين بالطائرات. لقد تحوّلنا بقدرة قادر إلى مواطني تلك الجزيرة الأسطورية التي تسمى "أوروبا". بضعة أمتار من الحركة في هذا المكان تفصلنا فقط عن ذلك العالم المفتوح لنا. كنت أحمل في يدي جواز السفر السحري الذي يحتوي على شفرة واضحة للحماية مكتوبة باللون الذهبي: الاتحاد الأوروبي.

مسارات ضوئية خافتة لطيفة قادتنا نحو الطائرة التي كان بها موسيقى مليئة بالمرح. كان الجو معطّراً في الداخل. استقبلتنا مضيفة الطائرة بابتسامة جميلة، وسألتنا إن كنّا نودّ شرب الشاي أو القهوة. كل الأنظمة والهياكل البيروقراطية - التي واجهتنا ومنعتنا من اجتياز الحواجز في الفترة الأخيرة - تُظهر دعمها لنا الآن، وتزوّدنا بالأسعار المخفّضة وبلوحات الإعلانات أيضاً. كل العقبات التي أوقفتنا قبل ذلك، تفعل الآن كل ما باستطاعتها حتى تصل بنا إلى

هدفنا على أكبر قدر من السرعة.

بعد الإقلاع بقليل وضعت خدي على طرف النافذة. كنت متّعباً جداً. نظرت طويلاً إلى البحر. رأيت مصابيح صغيرة كانت تعود لقوارب الصيد وهي تنتشر على سطح البحر. هل تكون إحداها هي تلك السفينة التي كنّا نحاول الوصول إليها ولم نفلح؟. البحر الأبيض المتوسط الذي يبدو صعب العبور، هذا البحر الذي يعني موتاً مؤكداً للكثيرين، نجتازه الآن بسلاسة وبدون جهد. بالنسبة لي شعرت في هذه الليلة شعوراً عميقاً بالفحش الممزوج بالعار والذنب.

عدنا أخيراً إلى أوطاننا؛ أنا إلى مدينة "رويتلينجين" الواقعة في الجنوب الألماني، و"ستانيسلاف" إلى مدينة "براج" عاصمة التشيك. إلا أننا استطعنا الحفاظ على التواصل مع مجموعة اللاجئين السوريين الذين كنّا معهم هناك.

الأسوأ لم يكن قد حدث لـ"عمّار" و"علاء" و"حسّان" بعد. كان في انتظارهم كابوس قادم.

في الأسابيع اللاحقة، بدأت الأزمة التي تعصف بالشرق الأوسط في التدهور بشكل كبير، تلك الأزمة التي دفعت الناس إلى اختيار عبور البحر نحو أوروبا، حتى لو كان عبوراً مكلّفاً ومرهقاً. لم تصبح الحروب القديمة أكثر دموية فقط، بل اندلعت حروب جديدة أيضاً.

عن الحروب

حرب نظام الأسد: لقد تم طرد النظام من مناطق واسعة في سوريا، وتم إضعافه بشكل واضح، لكن لم تتم هزيمته حتى الآن. لا زال الأسد يُدعم بشكل قوي من العلويين، وهؤلاء لم يعودوا يقاتلون معه من أجل الاحتفاظ بسلطتهم، ولكن لأنهم يخافون على وجودهم فعلاً. لقد تم ارتكاب الكثير من المجازر. هذه الحرب لديها توجه لتكون حرب إبادة من قبل الطرفين؛ فالسنّة الذين يشكّلون غالبية المنتفضين ضد النظام، يقفون مقابل العلويين الشيعة في وضعٍ غير قابلٍ للحلول ولا للمصالحة أو المسامحة.

يقوم السنّة بتهديد العلويين برميهم في البحر وتحويل قُراهم إلى أماكن خاضعة لحكمهم. لو قُدّر للمتمردين فتح ثغرة مهمة على جبهة معينة، سوف يعني ذلك فزعاً كبيراً للعلويين. بالمقابل، أدّت هذه الحرب إلى جعل عدد كبير من السنّة يتركون قراهم ومدنهم؛ فغالبية اللاجئين من السّنة. والقوة الجوّية للأسد والتي يسيطر عليها العلويون، تقوم بشكل منهجي بقصف المدن والقرى السنّية وتحويلها إلى ركام. يجعلون المنتفضين - في هذه السنة الرابعة للحرب - يشعرون بالإنهاك والتعب. الغالبية التي ثارت في مطلع سنة 2011 ضد النظام وتظاهرت سلمياً ثم حملت السلاح ضده، هم الآن إما هاربون أو في تعداد الجرحى أو الموتى. في جبهات عديدة، تكلّفت الوحدات القتالية المعارضة في سوريا الكثير من الخسائر وصلت إلى 75% من قواتها وذلك ضمن أشهر قليلة.

حرب العصابات: لقد أدّى موت المنتفضين الأوائل إلى تواجد أشخاص يبتعدون بدرجة كبيرة عن القيم الأساسية التي نادت بها الانتفاضة السورية ضد النظام. فهناك العشرات من المجموعات المقاتلة التي تحارب النظام ولكنها تتحارب فيما بينها أيضاً. هناك المئات من الميليشيات التي تبدّل تحالفاتها بشكل دائم. البعض من هذه الجماعات يرهب الناس بأعمال الخطف والسطو على القرى، والتي بدورها تحاول حماية نفسها بالميليشيات المسلحة.

حرب ضد المتطرفين: يقوم المقاتلون المعتدلون من قوات "الجيش السوري الحر" و"الجبهة الإسلامية" بمقاتلة التنظيم المتطرف الذي يدعى بـ"الدولة الإسلامية". هذه الحرب كلّفت حتى الآن حوالي 6 آلاف قتيل فيما بينهم.

حرب أهلية بين الراديكاليين: حتى الإسلاميون يحاربون بعضهم. فمثلاً تقوم ميليشيا "جبهة النصرة" التي ترتبط بتنظيم القاعدة الإرهابي، بمحاربة تنظيم "الدولة الإسلامية"، التنظيم الذي لفظته القاعدة رسمياً؛ إذ تبدو الدولة الإسلامية تنظيماً شديد التطرّف حتى بالنسبة لأتباع "بن لادن" اللاحقين.

الحرب الكردية: تبدو الصورة هنا وكأنّ كل الأطراف تقاتل ضد الأكراد، والأكراد يقاتلون بدورهم ضد الجميع. في شمال سوريا يقوم "البيشمركة" بحرب طاحنة ضد القوى الراديكالية والليبرالية من القوى الثورية التي ضد الأسد، وهؤلاء بدورهم يقومون بشكل دائم بمهاجمة المناطق الكردية. هذه القوى تعتبر الأكراد داعمين للنظام، بالإضافة إلى نظرتهم المريبة نحوهم بأنهم ليسوا مسلمين صالحين على صراط مستقيم.

حرب العراق الجديدة: في العراق، اندلعت في شهر يونيو من سنة 2014 انتفاضة كبيرة في المناطق السنّية ضد الحكومة المركزية في بغداد. لقد قام أنصار نظام "صدام حسين" القديم، بالتحالف مع المجموعات التابعة لتنظيم الدولة الإسلامية هناك. خلال أيام استطاعوا السيطرة على مناطق واسعة وسط العراق، كان جيش الحكومة على وشك الانهيار التام. أعدم مقاتلو "تنظيم الدولة" الآلاف من الجنود العراقيين النظاميين في مذابح جماعية. طردوا المسيحيين من مدينة "الموصل"، وأشعلوا النار في الكنائس. بالمقابل قام الشيعة بحشد أنفسهم ودعوا إلى الحرب والتسليح، آملين أن يدافعوا عن مناطقهم وأن يقدروا على الدفاع عن العاصمة "بغداد". لقد شهد العراق انهياراً كاملاً.

في كل هذه الحروب يتم الرد على الهجوم بهجوم مقابل، يتم فيه حرق القرى

والحقول. بعد كل هجوم جديد يقرر عدد جديد من العائلات الهروب إلى القرى التاليـة، عبـر الحـدود المجـاورة، إلـى السـواحل التاليـة، عبـر البحـار ... وهكذا دواليك.

الشاطئ للمرّة الثالثة

خرج الأخوان السوريان - "علاء" و"حسّان" - من مركز الاحتجاز الرئيسي في الإسكندرية بعد ثلاثة أسابيع من الإقامة فيه، أخبراني بذلك لاحقاً. لقد انفضّ أعضاء المجموعة عن بعضهم نهائياً، إلا أنّ "عمّار" عاد وأرجعهم. "عمّار" كان قد خرج من السجن قبلهم بأيام. عند الوداع، قمت بإهدائهم ثلاثة جواكيت نجاة كنت قد اشتريتها من محل لبيع أدوات رياضة ركوب القوارب في مقاطعة "شفابن" التي أسكن فيها في ألمانيا، بالإضافة إلى الحبوب الخاصة بتطهير الماء من الشوائب.

عانق الأخوان بعضهما أمام باب المبنى الذي احتُجزوا فيه لوقت طويل. "أهلاً، إزيّوكو"، قالها رجل وهو يحيّيهما. "الليلة دي في سفينة حتطلع. تبقوا تيجوا معانا بقى". "لا شكراً، بدنا نروح على القاهرة، لازم نرتاح شوي". هل يمكن لأحد أن يتحدث مع مهرّب بشر أمام عيون الشرطة في مكان كهذا! كانت الدهشة واضحة على "علاء". في الطريق إلى محطة القطارات الرئيسية بدأ "علاء" يتلّوى من الألم، كان خصره يوجعه إلى درجة لم يعد فيها قادراً على الحركة.

في القاهرة، كان "محمّد" بانتظار الأخوين، الرّجل الذي يدير محلاً ويملك شقّة فيها حمام مزوّد بمياه ساخنة. أخذ "علاء" وقتاً طويلاً وهو جالس في ذلك الحمام، شعر تحت المياه الدافئة بهدوء وسكينة.

في الليلة الأولى، قام "علاء" من نومه مفزوعاً عدّة مرات. كان يسأل مذهولاً "وين أنا، بالزنزانة شي؟، عند المهربين أنا؟".

لم يكد يمضي يومان على خروجهما من السجن، إلا وكان "بشّار" يتصل على التليفون. "بشّار" هو صديقهما الذي رافقهما بعض الوقت على الطريق. "شو المخطّط يا شباب؟، في مجال نحاول مرة تانية؟". "علاء" كان يريد أن يأخذ وقتاً للتفكير هذه المرّة، ويريد الانتظار ليرى هل استطاعت سفينة ما أن تصل

إلى أوروبا من مصر. ولكن من حيث المبدأ فقد كان مصمماً على ألا يترك الأمر، وأن يحاول مرة أخرى. لقد قام بطلب بطاقه إئتمانية جديدة بعد أن أضاع البطاقة التي كانت معه في تلك الرحلة. بعد ذلك قام بالاتصال بـ"بشّار" على التليفون. زعم مؤجر البيت - الذي اختبأنا عنده في الإسكندرية قبل اعتقالنا - بأن هناك سفينة جيدة سوف تبحر قريباً، يشرف عليها أناس يمكن الاعتماد عليهم، أمّا السّعر فهو حوالي 2400 دولار للشخص الواحد.

لقد تعلم الأَخوان من تجربتهما الفاشلة في الرحلة الأولى. احتفظ "علاء" برقم الضابط الذي كان مسؤولاً عن السجن الذي كنّا فيه عند الاحتجاز. وعدهما الضابط بأن يقدم لهما أية مساعدة ممكنة إذا تم اعتقالهما مرة أخرى في المستقبل؛ وذلك في مقابل مبلغ 100 يورو. سوف يقوم بإطلاق سراحهما، حتى قبل أن يتم تحرير محضر الشرطة؛ مثلما جرت العادة. في هذه المرة أخذ "علاء" و"حسّان" معهما سترات النجاة من الغرق، مع كمية كبيرة من التمر منزوع النوى؛ حتى يخفّ حمله أكثر. قاما أيضاً بأخذ كمية أقل من الملابس، حتى تكون حقيبتهما الظهرية صغيرة قدر الإمكان.

"علاء" كانت لديه مشاعر متناقضة؛ لأنه لم يكن يُحسن السباحة. ليس بإرادته ما يحدث، سوف يذهب لأنه مجبر على ذلك. هناك في "دمشق"، كانت حياته الحقيقية. لقد تربى في الحارات التي ترجع إلى الحقبة الرومانية والعثمانية القديمة، إنه ابن البازار، عالمُ صورِ الشرقِ المليء بالإثارة، ذلك العالم الذي لم يتوقف عن إبهار السّياح الأوروبيين. كان متجر العائلة يقع في البلدة القديمة، في عالم لا يصله ضوء الشمس، ولكن يوجد فيه ذهب وأحجار كريمة مضيئة. كان يحبّ الضوضاء التي يحدثها البائعون والزبائن، يبدو هذا العالم وكأنه لا يخضع لأية قواعد معينة، ولكن كل شيء فيه كان يمكن أن يتم الاتفاق عليه فعلاً. "كنت هنيك قادر إني أقعد طول اليوم وشوف رفقاتي وأشرب شاي، بدون ما أدفع مليم واحد".

ذهب مع أخيه إلى محطة القطارات، ظل معه حتى تحرّك القطار عند الساعة

التاسعة. كما هي العادة، فقد جاء "بشّار" متأخراً. "بشّار أخد مننا كل الراحة"، قالها علاء وهو الشّخص الذي لم يكن قلقاً في يوم من الأيام كما هو الآن، كان يعتقد دائماً أن باستطاعته السّيطرة على الأمور بنفسه. بدأ القطار بمغادرة المحطّة بشكل بطيء، هنا شاهدا "بشّار" وهو يجري على الرصيف، كان يبدو مُتعب الأنفاس بشعره الأسود الطويل وحقيبته الظهرية الصغيرة، اقترب من باب العربة والقطار يمشي ووضع يده على مسند الباب وقفز إلى الداخل بحركة سريعة. قال له "علاء" مُظهراً إعجابه بما فعل "إنت مو طبيعي".

***

في نفس اليوم الذي قرّر فيه "علاء" و"حسّان" أن يغيّرا رأيهما بخصوص محاولتهما للهرب، تم إطلاق سراح "عمّار عبيد" من سجن الإسكندرية. "عمّار" الذي كان يترجم لنا في الرّحلة، هو نفس الشخص الذي قمنا بتوديع زوجته وبناته الثلاثة. كان يبدو فاقداً قوته، متعباً ومنهكاً بالكامل. قبل أن يتم ترحيله كانت زوجته تريد أن تراه وتزوره في السجن، لكنه كان يرفض بحزم. كانت ترجوه قائلة "يا عمّار، هيك ماراح نقدر نضم إيدين بعض لوقت طويل". أجابها "مابدي تشوفيني وأنا بهالحالة". البنت الصّغرى له - والتي تبلغ من العمر خمس سنوات - سألته قبل أن تودّعه على التليفون "بابا إيمتى راح ترجع على البيت وتجيبلي شوكولاتة معك؟". لقد احتجزته الشرطة في المطار، ووضعته في نفس الغرفة المخصصة للترحيل التي جمعتنا أنا و"ستانيسلاف" قبل شهر من ذلك الوقت. كذلك قد تم الحجز له إلى "إسطنبول" على متن نفس شركة الطيران التي نقلتنا إلى هناك. قامت حينها السّلطات المصرية بتخييره بين الترحيل إلى لبنان أو إلى تركيا، بعد أن أظهروا الرحمة نوعاً ما في عدم الإصرار على ترحيل اللاجئين السوريين إلى سوريا مباشرة. لبنان أو تركيا إذاً.

"بدي سافر على الفراغ"، قالها لاحقاً عن تلك اللحظة. " كنت أعرف دايماً شو بدو يصير لبعدين، بس هلق ما بعرف". خلف مكتب تفتيش الجوازات في مطار "إسطنبول"، كان "ربيع" في انتظاره. الشخص الأكثر بدانة في مجموعتنا، والذي

هرب من سوريا بعد أن انشق عن الجيش النظامي؛ كان قد تم ترحيله من قِبَل السلطات المصرية قبل عدة أيام. حيّاه "ربيع" مبتسماً "أهلاً وسهلاً". ركبا معاً القطار وذهبا إلى المكان الذي استأجر فيه "ربيع" شقة صغيرة. سيكون "عمّار" هو الشخص الخامس الذي سيتشارك المكان مع لاجئين آخرين من سوريا. قال "عمّار": "ربيع، أنا مافيني عيش معاكون هون". كان بحاجة إلى شيء من الخصوصية بعد الأسابيع الطويلة التي عاشها في الاحتجاز. بعد ذلك قام "ربيع" بمرافقته إلى فندق رخيص يقع في نفس الشارع، 50 دولار لليلة الواحدة، مع فطور يومي. رغم أن الوقت اقترب على الظهيرة إلا قليلاً، إلا أنّ "عمّار" لم يعد يستطيع البقاء صاحياً، وقام بالاتصال بزوجته لوقت قصير. بعد ذلك استسلم لنوم عميق، وكان يتمنّى ألا يصحو بعد الآن.

***

في الإسكندرية، ذهب "علاء" و"حسّان" بصحبة "بشّار" إلى المبنى العالي ذي الشقق الصغيرة، في الحي الواقع شرق الكورنيش الرئيسي، وقاموا بلقاء المؤجّر في الدور الثاني عشر، ركبوا الأسانسير سامعين آيات قرآنية كانت تصدر من راديو بداخله، كانت نفس الشقة التي سكنّاها لفترة قبل رحلتنا الفاشلة تلك. المؤجر يسمى "أبو إبراهيم"، يتكلّم بشكل لطيف، كان رجلاً فارع الطول، فلسطيني سوري الأصل، ويقيم في مصر منذ زمن طويل. قال الرجل وهو يحيّيهم "أكيد حصل حاجة مش كويسة، بس المرة دي هي المرة الأخيرة اللي هايحصل لكو كده".

قبل الانتخابات في مصر، قدم الجيش نفسه بشكل واضح كبديل عن فوضى الديموقراطية والإخوان المسلمين؛ وذلك من أجل ضمان الاستقرار في البلاد؛ لذلك كانت فرص الإبحار إلى أوروبا غاية في الصّعوبة. ولكن الأحوال تغيرت الآن بعد أن استقرت الأمور على سيطرة الجيش بشكل كامل ووصول جنرال إلى منصب الرّئاسة. كان الرجل يقول لهم "صدّقوني، هاجيب لكو سفينة مع أحسن المهربين". "أبو إبراهيم"، مؤجر البيت الذي كان لحد الآن يقوم بتأجير

شقّته إلى المهربين، اكتشف بأنه يستطيع الفوز بمال أكثر من اللاجئين. يبدو أنه يفكر بأن يصبح وسيطاً بين اللاجئين والمهربين المحتملين، هذا سوف يُكسبه مالاً وفيراً بلا شك، عمولة تصل إلى 300 دولار للشخص الواحد. قبل هذا الوقت بثلاثة أسابيع، قام بعمل وساطة حتى يستطيع صاحبنا "عزّوز" إيجاد قارب مناسب. "عزّوز" هو ذلك الشخص المرح ناشر الفرحة في المجموعة. بعد خمسة أيام وصلت رحلته إلى إيطاليا فعلاً وهو الآن في السويد.

رغم ذلك فقد ظهرت مشكلة.

"أبو إبراهيم" لا يقبل إلا الدّفع مُقدّماً. في إحدى المرّات نصحني "علاء" ألا أثق بأي أحد يطلب الدّفع مُقدّماً، كان يعتقد بأنني لاجىء قبل أن يعرفني وقتها. "هيك ماراح تشوف أوروبا بحياتك"، قالها لي بصورة حازمة .. في حالة "عزّوز" طلب "أبو إبراهيم" ضماناً ما من أجل تأكيد الحصول على عمولته. عندها قام "عزّوز" بإعطاء النقود إلى صديق له، وطلب منه أن يبقى في شقة "أبو إبراهيم" طوال الرحلة، وأخبره ألا يعطيه المبلغ إلى أن يصل إلى إيطاليا. عندها اتصل "عزّوز" من إيطاليا، وقام الصديق بالفعل بتسليم "أبو إبراهيم" العمولة التي تمّ الاتفاق عليها. نصحهم "بشّار": "لازم نعمل متل عزّوز". قال "علاء" مُظهراً عدم الارتياح "لكن أنا ما بعرف حدا ممكن ييجي ويقبل بهيك شي". على عكس "بشّار" فإن "علاء" يفهم أكثر في أصول التفاوض والتّعامل. فـ"أبو إبراهيم" كان في حقيقة الأمر يطلب فدية أو رهينة إن صحَّ التعبير.

في هذه الأثناء، حاول وسطاء لمهرّبين آخرين أن يعرضوا خدماتهم. فـ"فادي" مثلاً، صاحب "عمّار" الذي استأجر لنا الرحلة الماضية، قام بالاتصال بشكل متكرر عارضاً عليهم رحلة سوف تنطلق في اللّيلة التالية، وهي أرخص من السّابقة حتى؛ التخفيض جاء لأنهم تعرّضوا للحبس في تلك المرة. كان يناديهم على التليفون "تعالوا يا أصدقائي". في هذه الليلة ذهب "علاء" و"حسّان" و"بشّار" إلى النوم وهم قلقون يحاوطهم الخوف والانتظار. في المرة الماضية

تمكنوا من الوّصول إلى البحر على الأقل، الآن يشعرون بأن الفشل يلازمهم حتى وهم لا يزالون على البر. تقلّبوا لوقت طويل في الليل في حيّرة مرهقة، هل يجب عليهم العودة إلى القاهرة؟ هل يجب عليهم أن يتنازلوا عن كل المشروع الآن؟ كانوا يفكّرون بدفن الحلم الذي صاحبهم طوال هذه الشهور، حالهم كحال الكثيرين ممّن تنازلوا عن أحلامهم ومشاريعهم عندما عرفوا بأنهم لن يتمكّنوا من تحقيقها أبداً. كان هذا حلاً واقعياً بالنسبة لهم حتى لا يصابوا بالجنون.

سأل "علاء" أخاه في الليل، مُظهراً استغرابه الشديد "حسّان، هلق بدنا نبطل نروح يا حسّان؟!". جاء "أبو إبراهيم" في صباح اليوم الثاني، كان لطيفاً هذه المرة أيضاً وأحضر لهم قهوة الصباح. من أجل بناء نوع من الثقة قام "أبو إبراهيم" بالحديث معهم حول موضوعات مختلفة مثل قصص النساء وأجسامهم المفضلة لديه وغير ذلك. قال "علاء" بعد أن فتح "أبو إبراهيم" الموضوع مرة أخرى "أنا بصراحة مالقيت شخص يضل "عربون" عندك عشرة أيام ويقعد على البطّانيّة هون". أجاب "أبو إبراهيم": "أنا هاجيبلو مية وأكل وكل حاجة هو عاوزها". هنا قال "علاء" معارضاً بأنه لا يعرف شخص يمكن أن يقوم بهذه المهمة. عندها قال "أبو إبراهيم" "أوكيه". قدّم الرجل اقتراحاً لم يقدّمه لأحد حتى الآن. صديق لـ"علاء" يجب عليه أن يقوم بدفع المبلغ له بعد ثلاثة أيام من الرّحلة، لأن المهربين يطلبون المال بعد ثلاثة أيام من موعد الانطلاق. خلال هذه الأيام الثلاثة سوف يكون "علاء" و"حسّان" والآخرون في المياه الدولية. سأله "علاء": "بس كيف ممكن نعرف بشكل مؤكد إنو بعد ثلاثة أيام راح نكون هنيك؟". في وقت متأخر من الصباح وجدوا الحل. سوف يقوم الشبّان الثلاثة بترك صديق لهم كرهينة عند "أبو إبراهيم"، ولكن بدون أن يكون معه أيّ مبلغ من المال. "أبو إبراهيم" وافق أخيراً على الاقتراح.

حدث ذلك في اليوم الثالث من إقامتهم في الشقة؛ إذ دخل عليهم "أبو إبراهيم" وطلب منهم أن يجهزوا أنفسهم. قام "علاء" بشراء ثلاث زجاجات من المياه

المعدنية؛ بحيث يستطيع تعبئتها مجدداً بمياه نظيفة على القارب أثناء الرحلة. تركوا جميع الملابس غير الضرورية ورائهم، مثل الغيارات الداخلية، حتى الشرابات تركوها ولم يأخذوا معهم شيئاً منها، تماماً كما طلب منهم "أبو إبراهيم" أن يفعلوا. لكنّه وعدهم بإحضار هذه الأشياء لهم إلى السجن في حال فشلت الرحلة!

تسعة أشخاص سيجلسون بعد قليل في ميكروباص جاء إليهم في حارة ضيّقة. قال لهم السائق محذراً بأنه سوف يرمي أي تليفون على الأرض ويكسّره لو قام أحدهم بالاتصال خلال الطريق. سافروا لمدة 20 دقيقة ثم نزلوا على شاطىء البحر حيث وجدوا شاباً بانتظارهم، طلب منهم أن يجلسوا على أرض كانت عشبية ويبقوا هناك، وأن يتصرفوا كما لو كانوا أناساً خارجين للنزهة. في هذا المكان يوجد الكثير من المصطافين المصريين، يتنقّلون مع أطفالهم في المنتجع الذي تكسوه خضرة جميلة. كان الجو مليئاً بالأصوات الفرحة. تحت شجرة ليست بعيدة من هنا، شاهد "علاء" مجموعة من الأشخاص الذين ظهر عليهم النعاس. عرف "علاء" أحدهم، قام واقفاً وذهب باتجاهه. الآن عرف أيضاً باقي المجموعة وخمّن ما هي القصة بالتحديد، إنه نفس الشاب الذي كان يضربنا بالعصا على الشاطئ في تلك الرحلة الأخيرة. لكن الرّجل أبدى الآن لطفاً كبيراً تجاه "علاء"، واعترف له بأن الرحلة تلك سيئة للغاية ولم يكن له أيّ ذنب في ذلك، أظهر أسفاً زائفاً نوعاً ما. مثل هؤلاء الصغار يحصلون على قوتهم عن طريق مرافقة اللاجئين وإحضارهم من الميكروباصات الصغيرة التي تنقلهم إلى هنا، وبعدها إلى السفن الكبيرة التي تنتظرهم في البحر. "ممكن اليوم تكون الأمور أفضل؟، أمانة احكي لي الحقيقة من فضلك، أخي ماراح يقدر يتحمّل الشغلة مرة تانية" قال "علاء" ذلك للشاب الواقف أمامه. قام الشاب بالإشارة إلى نقطة فاتحة تظهر على سطح البحر من بعيد وقال له: "دي السفينة بتاعتك، هي هناك دلوقتي، المرة دي إنت حتى مش حتبل رجليك في المية عشان توصل لها".

انتظر اللاجئون حتى غروب الشمس، بينما قام آخر من بقي من المتنزّهين بمغادرة الحديقة. لم يبقَ هنا إلا السوريون ومجموعة الشباب المصريين. عند المغيب لاحظ "علاء" وجود مجموعات صغيرة أخرى من اللاجئين يتدفقون، وعلى وشك عبور الحديقة مسرعين، حاملين أمتعتهم ذات الألوان الغريبة على ظهورهم، وممسكين بأطفالهم على الناحية الأخرى. جاء المهربون وبدأوا بالتنقل من كومة بشر إلى أخرى وهم يعدون الرؤوس التي يمرون بها. بدأ الظلام يهبط، كانت الساعة تشير إلى السابعة عندما قام أحد المهربين بإعطاء الإشارة بالتحرّك. هنا قامت المجموعات - التي كانت تقف حتى الآن بانتظام محافظةً على مسافة بين أفرادها - بالهجوم جميعاً ككتلة واحدة نحو البحر. صرخت امرأة بشكل مفاجىء من نافذة سيارة حمراء اللون من نوع "كابريولي"، بعد أن دخلت الحديقة وتوقفت بالقرب منهم تنظر باستغراب شديد"إنتوا رايحين فين؟".

"إحنا رايحين رحلة حتى ننبسط ونرفه عن حالنا"، أجابها بذلك أحد الشباب السوريين بصوت مبتهج. نزلت المرأة من السيارة وأخذت تتابعهم بنظرها وهم يشقون طريقهم نحو البحر.

البحر للمرّة الثانية

جلس "عمّار" مع "ربيع" في مقهى يطل على مضيق "البوسفور" في "إسطنبول". حلق ذقنه وشعره، وكان يلبس ملابس نظيفة من الكتان أرسلتها له عائلته وهو في السجن قبل أن يتم ترحيله. وجّه "عمّار" سؤالاً لـ"ربيع": "شو بدنا نعمل هلق؟". "عمّار" كان ينظر إلى "ربيع" على أنه شخص بسيط، لكن هذه النظرة تغيّرت الآن، وتعلّم أن يعيد تقييمه بطريقة أفضل. أجاب "ربيع": "راح نلاقي حل، لا تاكل هم". نظر الاثنان طويلاً على السّفن العابرة، كانا صامتين طوال الوقت يشربان الشاي بهدوء حذر. خطرَ في ذهن "عمّار" أنّ هذا المنفى يبدو وكأنه سّياحةٌ فعلاً، إلا أن هذا الحال سوف يتغير بعد الآن.

***

مشى اللاجئون نحو البحر بلا أيّة عمليات تمويه هذه المرة، لا أحد يريد أن يكون الأخير في الوصول. كانت خطواتهم تتسارع ثم بدأوا بالركض، في حين كان الأهل يمسكون أطفالهم بأيديهم. وصلوا إلى الضفة، وهي عبارة عن مصطبة صخرية يبلغ طولها متراً تقريباً، وهناك قارب مطاطي كان مثبتاً جيداً عليها، كان البحر هادئاً وصافي المزاج، حتى أنّ القارب لم يكن يتمايل أبداً. قفزوا إلى الداخل، ساعدوا بعضهم، كل شيء كان يسير على ما يرام، لم يقم أي مهرب بضرب أي من السوريين هذه المرة. "شكلو الأمور ماشية تمام"، همس بها "علاء" في أذن أخيه وهم في القارب. بقدر ما كانت الأمور صعبة في المرة الماضية، بقدر ما يشعرون الآن بالراحة والهدوء. لم تستغرق الرحلة من أول الليل سوى 10 دقائق حتى رأوا أمام الساحل قارباً آخر أكبر حجماً ينتظر أمامهم.

كانت هناك أيادٍ تمتدّ إليهم، وأيادٍ أخرى تدفعهم من الوراء خلال الصعود. قام المهربون بربط القاربين مع بعضهما بإحكام واضح. فالخطر سيكون كبيراً ومدمراً إذا اصطدمت الكتلتان. وضعوا أيضاً عجلات مطاطية (كاوتشات) بين

الهيكلين الخشبيين؛ كي يتم امتصاص الصدمات التي يمكن أن يسببها الموج نتيجة الاهتزاز القويّ. إن لحظة تبديل القوارب، تعتبر من أخطر اللحظات في هذه العملية. تدور بين اللاجئين الذين وصلوا إلى أوروبا قصص كثيرة ومرعبة، عن حالات فقد فيها بعض الركاب توازنهم وهم يقفزون من قارب إلى آخر، وكيف وقع بعضهم في الماء وكان الغرق بانتظارهم. بالإضافة إلى تلك القصص المرعبة عن حالات الوقوع بين القاربين المتمايلين، وكيف تعجّنت أجسامهم بقسوة.

أثناء عملية تبديل القوارب انفصل الأخوان، حيث جلس "حسّان" في المقدمة و"علاء" في المؤخرة. "دير بالك على أخي الله يخليك"، قالها "علاء" متحدثاً إلى أحد المهربين المرافقين لهم راجياً منهم مساعدة أخيه، وأضاف قائلاً "عندو مشاكل بالركبة".

مرَّ على عبورهم البحر حوالي ساعة ونصف من الزّمن، إلا أنه في كل لحظة توجد إمكانية ما لتعرضهم للاعتقال من خفر السواحل؛ بسبب وجودهم في منطقة المياه الوطنية المصرية؛ فهم ما زالوا في البحر ضمن منطقة الـ12 ميلاً قبالة السواحل المصرية. في تلك الرحلة وفي ظلام الليل، كانوا لا يبتعدون سوى عدة مئات من الأمتار عن مواقع دوريات قوارب المراقبة المصرية، لقد عبروا أمامها حتى من دون أن يعترضهم أحد. "علاء" اعتقد بأنه رأى نفس السفينة التي اعترضتهم واعتقلتهم عندما كانوا على جزيرة "نيلسون" قبل هذا التاريخ بشهر من الزمن. شاهد رجال الطاقم في المقصورة، ورأى كيف بدأوا يوجّهون رادار السفينة، وظن بأنهم سوف يقومون بقطع الطريق أمامهم. كان يعتقد بأن الأمور سوف تكون مشابهة لما حدث في المرة الماضية. أحسّ في قرارة نفسه بأن القصة قاربت على الانتهاء، وسوف يُرسَلون قريباً إلى السجن في الإسكندرية. من شدّة خوفه بدأ يبحث في حقيبته التي كانت بجانبه عن تليفونه المحمول؛ حتى يجد رقم ضابط الشرطة الذي وعده أن يقدم مساعدة إذا حصل شيء ما. لم يُظهر المهربون أية حركة غير طبيعية، وكانوا غير

مهتمين أبداً، فيما بقيت السفينة التابعة لخفر السواحل في مكانها لم تتحرك أبداً. قال "علاء" معلّقاً "لقد شاهدونا حتماً". يبدو أن الرّشوة التي تم دفعها من المهربين للضباط ولطاقم المراقبة قد آتت أُكلها ونجحت هذه المرة.

طبطب صديقه "بشّار" على كتفه معلّقاً "شوف، هي آخر مرة بتشوف فيها أضواء الإسكندرية". التفت "علاء" الذي كان يجلس في المؤخرة، ونظر نحو الساحل وشاهد بأم عينيه كيف كانت الأنوار تختفي بشكل تدريجي متلاشية في الأفق. بعد ذلك بقليل نظر نظرة أخرى إلى الوراء، وإذا بالأنوار تختفي، لم يبقَ خلفه إلا الظلام الحالك.

***

لم ينعم "عمّار" بنومه في تلك الليلة في الفندق في "إسطنبول"، كان قلقاً للغاية، متقلباً في سريره، وتقطع نومه عدّة مرات. الدّواء المهدّىء الذي كان يتناوله أقلع مؤخراً عنه، وهذا ما سبّب له مشاكل حقيقية في النوم. قرّر أكثر من مرة أن ينفض الغبار عن نومه هذا ليقوم ويصحو. بعد ذلك سحب المخّدة ووضعها خلف رأسه وفتح التليفزيون وهو يتنهّد.

***

قبل طلوع الفجر بقليل، ظهر فجأةً قارب يعمل عن طريق الموتور، يصدر عنه إشارة تحذير ضوئية حمراء. دبَّ الخوف والتوتر في قلوب اللاجئين، وبدأوا بسؤال المهربين عن ذلك من دون أن يحصلوا على أية أجوبة. بدأ الضوء يصبح أكبر شيئاً فشيئاً، يقترب ويقترب وهو يعلو وينزل بين الأمواج. أخيراً شاهد الجميع ماذا كان ذلك: إنها سفينة لصيد السمك بطولٍ يصل إلى 30 متراً. كانت هذه السفينة مستقبلهم.

كان اسم السفينة "البسّام". كانت السفينة مزيّنة بزعانف جافّة لسمك السلمون. أمّا طاقم السفينة السمكية فبلغ 12 شخصاً من الرجال، يتّخذ أغلبهم من الصيد

حرفة له، كانوا شبّاناً صغاراً مفتولي العضلات، ويعملون معاً منذ سنوات طويلة كفريق متجانس. قام الرجال من السفينة التي كان عليها اللاجئون، ورموا الحبال على مقدمة "البسّام"؛ حيث تلقفها الرّجال المقابلون لهم هناك وبدأوا بسحبها إليهم؛ بحيث وقفت السفينتان جنباً إلى جنب بشكل متلاصق. بينما ذهب حبل آخر إلى مؤخرة السفينة من أجل تثبيتها بشكل أفضل.

الصيادون الذين تحولوا في هذه اللحظة إلى مهربين، بدأوا عملهم بنقل الناس على متن السفينة، بدأوا بالأطفال، ثم النساء اللواتي تم وضعهنّ تحت كابينات تعود إلى غرفة القيادة. أمّا الرجال فقد أجلسوهم على السّطح جميعهم. تم فصل الناس إلى مجموعتين بشكل متقن ومخطّط. نصف الركّاب كانوا مصريين يريدون أيضاً التوجّه نحو أوروبا من أجل الحصول على شغل أفضل. هذا ما يقولونه، أما الحقيقة فهي أنهم سوف يزعمون أنهم سوريون بمجرد أن يصلوا إلى هناك. كانوا جالسين على الجانب الأيسر من السفينة، والسوريون الركاب على الجانب الأيمن. السبب الخفي وراء هذا الإجراء سوف يعرفه "علاء" بعد عدة أيام تالية.

كان المزاج العام على متن سفينة "البسّام" رائعاً ومثالياً، كان "علاء" مسترخياً كما لم يكن منذ زمن طويل، بدت السفينة بحالة جيدة؛ إذ كانت مصنوعة من الحديد وليس من الخشب الفاسد، كالتي تصنع منه قوارب تهريب اللاجئين بشكل عام. إضاءتها كانت أيضاً جيدة، احتوت على مصابيح توزعت بين كابينة القيادة وعلى السطح. تتضمن السفينة أماكن واسعة نسبياً، سطحها كان خالياً بحيث يمكن أن يمد المرء رجليه ويجلس براحة، لم تكن محشوة بالركّاب. هذه المرة تواجد على متنها 73 شخصاً فقط. سمع "علاء" بأن سفناً أخرى تقوم بحشر أشخاص يصل عددهم إلى 700 من اللاجئين. حتى التواليت الموجود هنا كان مقبولاً.

طاقم السفينة عمل بجد ونشاط يمكن رؤيتهما بوضوح. كان من بين الطاقم طبّاخ يدعى "عليّ". قدم "عليّ" وجبات الطعام إلى اللاجئين، وكانوا بدورهم

يقومون بتوزيعها على بعضهم؛ حتى يكتمل حصول كل شخص على وجبة تتضمن خبزاً وجبناً ذا رائحة كريهة. "علاء" نصح الجميع بعدم الأكل، لكن لم يسمع أحد كلامه. لم يمرّ وقت قليل حتى بدأ أحدهم بالتقيؤ على السّطح. علّق "علاء" ساخراً "ما قلت لك".

تخيّلوا بأن إيطاليا أوشكت أن تكون قريبة منهم. اعتقد "علاء" بأن الأسوأ قد تـم اجتيـازه. الانتظـار الطويـل، الخطـف، مـا حصـل علـى جزيـرة "نيلسـون"، الاحتجاز المهين والوقت الطويل بلا حول ولا قوة في السجن، كل هذا أصبح ماضياً خلفهم.

لكن رجعت تحاوطه الحيرة، ويساوره القلق بشكل متزايد.

عندما قام بجولة استكشافية على متن "البسّام" في اليوم الثاني، سأل "علاء" الركاب المصريين الذين كانوا جالسين على الجهة اليسرى من السفينة "إنتوا وين رايحين". لقد انتظر أجوبة مثل إلى السويد أو إلى ألمانيا. إلا أنه لم يسمع منهم إلا الجواب التالي الذي أفزعه بحق: "إلى اليونان!". "بس إحنا مالنا رايحين لليونـان يـا جماعـة، إحنـا رايحـين لإيطـاليا!"، حـاول عـلاء بكلماتـه أن يُنـهي أوهامهم، إلا أنّ المصريين عادوا وكرّروا: "إحنا رايحين اليونان!".



الملحمة

بعد ظهر أحد الأيام، رأى "علاء" كابتن السفينة للمرة الأولى، ظهر فجأةً أمامه قرب كابينة القيادة على السّطح. حاول الكابتن تجاهله؛ حيث إنه لا يرغب عادةً في الحديث مع أي أحد من الرّكاب، وإن كان لا بد من ذلك، يفضّل الرجل التحدّث مع الكبار منهم فقط. "أبو أحمد" رجل في الخمسينات من العمر، صغير الحجم قوي البنية، ونادراً ما يظهر للملأ في أرجاء السفينة. ينام "أبو أحمد" في غرفة القيادة ويتناول طعامه هناك أيضاً. غالباً ما يسمع اللاجئون الذين ينامون بالقرب من الحجرة الخاصّة به، أحاديثة المتواصلة على اللاسلكي مع بقية قادة السفن في وسط البحر أو مع المهربين على اليابسة. يقوم في بعض الأحيان بالحديث معهم بالهمس أيضاً.

في العادة، يلبس "أبو أحمد" تي - شيرت غامق اللون، وبنطلون سميك من الصوف تبدو البقع واضحة عليه. له نصيب كبير من الاحترام من طاقم السفينة، يكفي أن يأمر بصوت منخفض حتى يسرع الرّجال تنفيذاً لطلبه. في ذلك الصباح طلب من عامله "مصطفى" أن يوجّه كلمة إلى اللاجئين، بشأن بعض المعلومات التي يجب عليهم سماعها والعلم بها. "لو كنتوا جعانين، حنقدم لكم الأكل. لو كنتوا تعبانين، ممكن تستريحوا وتناموا، حتى لو كنتوا عيّانين، إحنا عندنا دوا ليكو". هكذا كان محتوى الكلام الذي قِيلَ على أسماعهم.

ترك طاقم السفينة انطباعاً حسناً لدى "علاء"، ظهر عليهم أنهم رجال بحر وأبناء مهنة حقاً، أقوياء ويعرفون بالضبط ما ينبغي عليهم عمله في هذا البحر الكبير. كانت أصول معظمهم من مدينة "رشيد"، التي تبعد حوالي 60 كيلومتراً شرق مدينة الإسكندرية. ينتمي أغلبهم إلى نفس العائلة ويسكنون في نفس الحي.

كان الطبّاخ "عليّ" أقل رجال الطاقم مكانة، شاب نحيف وقصير القامة يبلغ من العمر 18 عاماً، بيدين متسختين طوال الوقت. هو الوحيد الذي لم يكن ينتمي إلى العائلة التي تضم باقي أفراد الطاقم. يبدو "عليّ" في بعض الأحيان مثل

رعاة الغنم البسطاء، يقوم "عليّ" بإرشاد اللاجئين وإخبارهم بما ينبغي عليهم فعله؛ مثلاً يطلب منهم الانحناء وعدم إظهار أنفسهم في حال مرّت سفينة أخرى بالقرب منهم، يمنعهم من الجلوس على الأطراف الخارجية خوفاً من السقوط. كان أيضاً ذلك الشخص الذي يأخذ الأطفال إلى التواليت عندما تبدأ الأمواج بالارتفاع وبضرب القارب بشدة. يبدو شخصاً مخيفاً للأطفال؛ وذلك بسبب بشرته الدّاكنة بالمقارنة مع الآخرين، وبسبب رائحته النتنة الكريهة. يتلقى "عليّ" مبلغ 100 يورو على كل يوم عمل على سطح السفينة. لم يكن باقي الرجال يقبلون بأقل من حوالي 300 يورو أجرة لليوم الواحد على الأقل.

حكى "علاء" وهو فرحان وفخور بعض الشيء أنه خلال الرّحلة نشأت بينه وبين رجل صيانة الموتور صداقة عابرة. إنه "أبو إبراهيم"، ذو الثلاثين عاماً من العمر، حليق الرأس، يرتدي جاكيت ذا غطاء للرأس، متزوّج وأب لثلاثة أطفال. يقول عنه "علاء": "رجل طيب جدّاً". يتقاضى "أبو إبراهيم" أجراً عالياً بالمقارنة مع الآخرين، 300 يورو يومياً. يساعده في العمل ابن أخته، الفتى الطيب صاحب الأعوام الخمسة عشر، الذي يحاول تعلّم الصّنعة منه تدريجياً. مثل معلّمه، كان ينام ابن الأخت بجانب الموتور تماماً. بدا هذا الموتور وكأنه جديد الصنع، قام "أبو إبراهيم" بتركيبه وصيانته منذ شهرين فقط. يحدثنا الرّجل بأنه يملك كميّة جيّدة من وقود الديزل، تكفي حتى لقطع المسافة بين مصر وإيطاليا ثلاث مرّات متواصلة. يقدّر "علاء" الرّجل لأنه صادق فيما يقول. يجيب "أبو إبراهيم" عندما يسمع سؤالاً لا يريد الإجابة عليه "أنا هنا بشتغل ميكانيكي وبس". مثلاً على سؤال من نوعية إذا ما كانت السفينة تتّجه فعلاً نحو إيطاليا أم نحو اليونان.

يقول "علاء" و"حسّان" وهما يقلبان أفكارهما "لو لم نصل صباح يوم غد إلى اليونان، نعرف بأننا نتّجه فعلاً إلى إيطاليا". قال لهما أحد السوريين الذين لهم خبرة في السفريات البحرية في "اللاذقية" بأن اليونان لا تستغرق أكثر من ثلاثة أيام من الإبحار.

***

في "إسطنبول"، بدأ "عمّار" بالاشتغال على خطّة جديدة والترتيب لها. مازال متمسّكاً بالذّهاب إلى ألمانيا رغم كل شيء، البقاء في تركيا لا يبدو بالنسبة له اختياراً جيداً أبداً. ماذا يمكن أن يفعل في هذه البلاد؟، إنها ليست وطنه. كان سهلاً عليه أن يحضر عائلته إلى هنا، ولكن من أين سيعيشون؟ وكيف سيقومون بتدبير أمور حياتهم؟ كيف يمكن له أن يجد طريقة للعمل والرزق في هذه البلاد المليئة باللاجئين من السوريين والعراقيين؟ يعتقد بأن هذه المهمّة ستبدو أسهل في ألمانيا.

بدت الخطة التي تصورها صعبة التطبيق. لقد أغلقت أوروبا جميع منافذها المطلّة على تركيا. فشلت كل محاولات "عمّار" للهروب من تركيا.

كان عليه أن يعبر حدوداً تقع بين تركيا واليونان على ضفاف نهر "إيفروس" الذي تنتشر الألغام على جانبيه من هنا وهناك. بعض هذه الألغام يعود إلى فترة الحرب العالمية الأولى.

فقط من جهة الشّمال تنفتح الحدود على أراضٍ واسعة ومفتوحة. هذه المنطقة من الأرض تبلغ حوالي 12 كيلومتر من الطول. من هذا الممر الضيق يمكن القول بأن أكثر من 90% من اللاجئين يتسللون نحو أوروبا بطريقة غير شرعية. هذا هو الطريق الرئيسي للجوء إلى أوروبا؛ حيث استطاع 73 ألف شخص العبور منه في سنة 2012 فقط؛ لذلك قررت الحكومة اليونانية أن تفعل شيئاً لوقف هذا الزّحف، وقامت ببناء حاجز شبكي يبلغ 4 أمتار من الارتفاع، بالإضافة إلى مجرى عميق تم حفره أمامه في الأرض. لقد زرعوا كل المسافة بكاميرات المراقبة التي تعمل على الحرارة، بالإضافة إلى الأجهزة الكهربائية التي تجسّ الحركة. هذه الإجراءات الصعبة دفعت بالمهربين إلى تغيير مسارهم نحو الحدود البلغارية.

لكن في عام 2014، تبعت الحكومة البلغارية نظيرتها اليونانية بإجراءات

الحماية والإغلاق على الحدود، وقامت ببناء حاجز شبكي يمتد على 30 كيلومتر، بارتفاع يصل إلى 3 أمتار، ومغطّى بالأسلاك الشّائكة. كذلك الأمر، قامت شرطة الحدود بتزويد هذا الممر الطويل بالكاميرات الحرارية وبأجهزة الرؤية الليلية.

لم يكن كل هذا إلا وصفة جديدة لزيادة عدد الضحايا من البشر. حدود أوروبا عادةً ما توصف بـ"الخطيرة" على ألسنة المسؤولين؛ إلا أنه ورغم هذه الإجراءات المبتكرة، فإن حدود أوروبا - في عيون عديد من اللاجئين- هي الأكثر أماناً. لكن إجراءات الحماية هذه، تُجبر مهربي البشر على التفكير بطرق أكثر خطورة لتهريب زبائنهم. إن كل مأساة جديدة يموت فيها لاجئون، تعطي للسّلطات الأوروبية تبريراً إضافياً من أجل الاستمرارية في جعل الحدود أكثر "أمناً". بحجة أنهم لا يقومون بذلك إلا في سبيل تجنب موت لاجئين جدد. إلا أنه يمكن القول، وبشيء من الثقة، إن هذه الإجراءات لا تؤدي إلا إلى تسهيل الموت لعددٍ آخر من اللاجئين في دورة جهنّمية واضحة.

لم يبق بالنّسبة لـ"عمّار" سوى عبور البحر عبر "آجايس".

كان يجلس في تلك القهوة التي غالباً ما يرتادها بقية اللاجئين السوريين. إنها أيضاً مركز لالتقاء المهربين بزبائنهم المحتملين، هناك حيث يمكن للإشاعات وأنباء الرحلات أن تنتقل بسهولة من شخص إلى آخر. حاولت الشرطة التركية أن تقوم ببعض " الكبسات " المفاجئة، ربما تنجح في ضبط هؤلاء التّجار إلا أنها لم تُفلِح. هنا أيضاً يمكن لـ"عمّار" أن يلتقي بعض الوسطاء - الذين يساعدون المهربين على اصطياد زبائنهم وتسهيل التواصل فيما بينهم - ليقدموا له الاستشارة التي يحتاجها في سعيه للذّهاب نحو "أزمير". حيث ينوي "عمّار" من هناك أن يركب سفينة تأخذه نحو اليونان.

وافق "عمّار" فوراً على الخطة، ترك الفندق الذي أنزله به "ربيع"، وسافر راكباً طيارة نحو مدينة "أزمير"؛ حيث قام مجدّداً بحجز غرفة لا تبتعد عن الميناء

سوى 300 متر فقط. في هذا الميناء يمكن رؤية عشرات من اليخوت الفاخرة ترقد بسلاسة رائقة، من بينها يخت أبيض يبدو وكأنه خاص بالاستجمام وقضاء العطلات الهنيّة. انتظر طويلاً هناك، عسى أن يتصل به أحد الأشخاص الذين لهم تواصل مع أحد المهربين، لكن لم يحدث شيئ من هذا. أخيراً قرر أن يعود راجعاً إلى "إسطنبول".

***

في صباح اليوم الثاني، قام "علاء" من نّومه والألم يفتك به من ناحية الظَهر مع وجع شديد في الرأس. لقد كانت الليلتان اللتان قضاهما على متن السّفينة غاية في القلق والاضطراب، فيما قام عدد من الرّكاب بالدهس عليه بأرجلهم دون انتباه في جلبةٍ من الحركة. في ذلك اليوم، تناول "علاء" وجبة قذرة من البطاطس الفاسدة الممزوجة بزيت زنخ الرائحة.

رغم أن البحر كان متوسط ارتفاع الموج، إلا أنه بدأ بالثوران والهيجان المقلق؛ حيث كانت الأمواج تتعالى أمام "علاء" بارتفاع مخيف. لقد كاد القارب أن يدخل في عمق تلك الأمواج. وضع "علاء" نفسه متسمّراً في المنطقة الضيقة التي تفصل جدران السفينة عن بعض القُبب المبنية على سطحها، وشدّ قدميه نحوه بقوة شديدة. لقد كانت أوقاتاً عصيبة جعلت أغلب اللاجئين من الرّكاب يخرجون ما في بطونهم على الأرض التي امتلأت بالمخاط وبقايا الطعام الكريهة.

قال "أبو إبراهيم" في مساء ذلك اليوم العاصف "إحنا رايحين لليونان". هناك بالقرب من "كريت"، يجب عليهم رمي الرّكاب المصريين الذين على متن القارب، وانتظار ركّاب لاجئين جدد ليتم استقبالهم واصطحابهم معنا. عند ذلك يمكن القول بأننا ذاهبون إلى إيطاليا. سأل "علاء" صاحبه "أبو إبراهيم": "قديش عدد اللاجئين الجداد اللي راح يسافروا معنا؟". أجاب الرّجل بأنه لا يعرف تحديداً، قال أيضاً إنه حتى قائد السفينة لا يعلم عن ذلك شيئاً.

كانت الأمواج تتعالى بمرور كل ساعة وتزداد قوة. كانت السفينة تشقّ طريقها فعلاً في تلك المنطقة الأكثر عمقاً وخطورة في حوض البحر المتوسط كلّه. هنا لا يمكن مقارنة الأمواج بتلك المناطق المقابلة للشواطئ المصرية على ضفاف الإسكندرية أبداً.

في إبحارهم نحو جزيرة "كريت"، بدأت الرياح تضرب بقوة واضحة من جهة الشمال الغربي. بدأ الرعب والهلع في الانتشار بين اللاجئين. ماذا سيحدث لهم لو تم اعتقالهم من قبل خفر السواحل اليونانية؟ يعرفون من خلال عشرات القصص من معارفهم وأقاربهم بأن اليونان هي فخ كبير للسوريين، تبدو وكأنها سجن كبير مجهز لهم. بلاد مليئة بالفقر والبؤس، ماذا يمكن أن تقدّم لهم! مئات من اللاجئين يقفون في طوابير طويلة محاولين تقديم طلبات اللجوء في "أثينا"، يستطيع البعض منهم فقط أن يفلحوا في ذلك. أما مراكز استقبال اللاجئين فلا تدعو بأوضاعها الرديئة إلا للأسى.

ولأن اليونان محاطة بتلك البلدان التي لا تنتمي إلى الاتحاد الأوروبي؛ تبدو محاولات الخروج منها صعبة جداً. حتى السفن البحرية التي تسافر نحو إيطاليا يتم مراقبتها بشكل صارم، فيما تكون حدودها مع بلغاريا أكثر صرامة مع مرور الوقت. أمّا تلك الطرق التي يأخذها المهربون عن طريق ألبانيا والبلقان فلا تزيد على أن تكون فخاً مالياً كبيراً، لا قدرة لكثير من اللاجئين على تحمّل تكاليفها الباهظة، بما فيهم هؤلاء اللاجئون السوريون الذين على متن سفينة "البسّام".

كان "علاء" يرقد على سطح السفينة قرب كابينة القيادة عندما سمع صوتاً قوياً في الهواء. صرخ الطّباخ "عليّ" منادياً على كابتن السفينة من فوق "الحبال بتتقطع ورانا يا رجالة!". شاهد "علاء" بأم عينيه كيف كانت القوارب الصغيرة التي تجرها سفينة "البسّام" خلفها تتمايل بسبب تقطع الحبال في الخلف. طاقم السفينة كان بحاجة إلى هذه القوارب بشدة؛ وذلك كي يتم قذف اللاجئين على متنها بمجرد الاقتراب من الشواطئ الإيطالية؛ وبذلك يتم تجنب

وقوع السفينة الأم ذات الثمن الباهظ بأيدي البحرية الإيطالية، في حال دخولها المياه الوطنية هناك. إفراغ اللاجئين من السفينة الكبيرة إلى هذه القوارب الصغيرة على الجهة المقابلة لشواطئ إيطاليا ستكون مهمّة كبيرة وحساسة لطاقم السفينة.

قام رجال "أبو أحمد" بالتصرّف سريعاً لإنقاذ القوارب من أن تُفلت في البحر، رموا الحبال عليها، وحاولوا سحبها بقوة نحوهم. كانت تبدو ثقيلة. بعد حوالي نصف ساعة من العمل الشاق، تمكّنوا أخيراً من شدّها إلى السفينة الأم وتثبيتها على وتد السارية الأساسي بإحكام شديد. في خلال تلك الأوقات المجنونة، كانت الأمواج لا تزال تضرب بقوة على السطح، حتى تسربت مياه كثيرة إلى الحجرة التي توجد فيها النساء.

لم تكد تمرّ ساعتان من الزّمن حتى عاد الحبل الذي تم ربطه بالقوارب للتمزّق والانهيار.

عمليـة التصليح والتثبيت استغرقت وقتاً أطول هذه المرّة؛ وذلك لأنه كان عليهم تبديلها بالكامل. لقد استطاعوا ربط القوارب حتى لا تنفصل في عرض البحر، ربطوها بالحبال بإحكام وبعُقَد تثبيت جديدة. في هذه الأثناء بدأ الطاقم بتخفيف سرعة إبحار السفينة بعد أن كانت تبحر بالسرعة القصوى - أي على الغيار الثالث طوال الوقت - وذلك حسب طلب الكابتن "أبو أحمد" طبعاً. أطلق صوت الإنذار العالي مرتين ليخفض متخصص الموتور "أبو إبراهيم" السرعة ويضعها على الغيار الثاني. يبدو أن هذا الإجراء كان أيضاً فرصة كي لا تتقطع الحبال التي تثبت القوارب الصغيرة المرافقة مرة أخرى.

إلا أنه وعند الساعة السابعة مساءً تقطّعت الحبال مجدداً للمرة الثالثة. كانت السفينة في هذه الأثناء تتلقّى ضربات قاسية من الأمواج القوية التي كانت الأعنف في هذه الرّحلة حتى الآن. من شدة التمايل قام "علاء" بتثبيت يديه على جدران القارب بشدّة، وشدّ رجليه جهة الباب الذي يؤدي إلى الكابينة التي

توجد فيها النساء في الأسفل. كان صوت صراخ الأطفال مسموعاً وواضحاً، فيما كان الجميع يبكون وهم يبتهلون إلى الله الرحمن الرحيم أن يقف معهم، وأن ينجيهم من هذا البلاء الذي هم فيه. بعض اللاجئين حاول يائساً أن يتكلّم مع بعض طاقم السفينة آملين منهم التراجع عن الذهاب إلى اليونان بسبب الخطورة الكبيرة التي يمكن أن تأتي عن خطوة كهذه.

عند التاسعة مساءً، قام قبطان السفينة بالنزول من كابينته على السطح، وتحدّث بنفسه إلى الراكبين مطمئناً إياهم بأن السفينة لن تقترب من المياه العميقة المقابلة لليونان. أحد الأشخاص الذين كانوا يجلسون بصمت جانب "علاء" قام بتوجيه سؤال إلى الكابتن يسأله فيه عن عدد اللاجئين الجدد الذين سيتم استقبالهم من اليونان؟ لم يعجب "أبو أحمد" السؤال، رد عليه متهكّماً وغاضباً "أنا عاوز أعرف بس إيه الفرق بالنسبة ليكو؟!".

بعد ذلك رجع الرّجل إلى مقره صارخاً على الطباخ "عليّ"، الذي كان بدوره عليماً بما يحتاجه القبطان في هذه اللحظة. أحضر "عليّ" علبة مصنوعة من البلاستيك وأحدث فيها ثقباً صغيراً في قاعها، ثم ملأها بالماء، وأدخل فيها قطعة صغيرة من "الحشيش" ثم أشعلها بالنار. تمتلىء العلبة بدخان المخدر مع حركة المياه والهواء شيئاً فشيئاً (مثل الجوزة). بعد ذلك قدّمها إلى معّلمه "أبو أحمد". أخذها القبطان بسرعة وأخذ يستنشق ما بداخلها بقوة عبر شهيقين كبيرين. تعتبر هذه الطريقة إحدى أقل الطرق تكلفةً في تعاطي المخدّرات. كل المهربين تقريباً يعتبرون المخدّرات أكثر أهمية بالنسبة لهم من الطعام والشراب، ذلك ما لاحظه "علاء" في تجربته المريرة تلك.

***

بعد عودته إلى "إسطنبول"، رجع "عمّار" إلى مكانه المؤقت في الفندق الرخيص الذي اسمه "البيت الأفضل" حسب الترجمة العربية، والتقى هناك بصاحبه "ربيع". "ربيع" كان في بعض الأحيان يعمل أيضاً في تسهيل وصول زبائن من

اللاجئين إلى المهربين هناك. لقد تراجع عن رحلته التي نواها صوب السويد؛ وذلك بعد أن نفدت الأموال التي كانت معه. لم يعد يتلقى أية أموال من عائلته. قال "ربيع" موجّهاً كلامه إلى "عمّار" بأن لديه عملاً مهماً هذه الليلة. أخبره بأن أحد المهربين المعروفين سوف يقوم بتجهيز كابينة نقل على متن سفينة تجارية كبيرة ستبحر نحو إيطاليا. السعر سوف يكون بحدود 6500 دولار للرّاكب. وافق "عمّار" على الفور وأبدى اهتمامه بهذ الرحلة، مهما كان إيطاليا أفضل من اليونان. ذهب بسرعة إلى غرفته في الفندق وقام بتوضيب أغراضه واضعاً إياها في حقيبة يمكنه حملها على ظهره. جلس ينتظر الإشارة في مقهى قريب مجاور، حتى وصلته مكالمة من "ربيع" يخبره فيها بأن الرحلة قد تم تأجيلها إلى يوم غد.

"متل ما صار بمصر، نفس الخراء يا زلمة" قالها "عمّار" متحسّراً على وضعه.

***

تبدّى القمر ظاهراً في كبد السماء، فيما بدأ "علاء" برؤية أضواء خافتة تتلألأ في الأفق البعيد. كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل بقليل. لقد زعم بأنه رأى سلسلة من الجبال. كانت السفينة تقترب قليلاً من الساحل. كما قال متخصص الموتور "أبو إبراهيم": إنها جزيرة "كريت". قام القبطان بالسماح للمصريين - الذين حجزوا لأنفسهم إلى اليونان - بالنّزول إلى القوارب الصغيرة، فيما تم مشاهدة الطباخ "عليّ" وثلاثة آخرين من رجال الطاقم يقومون بتنظيف السطح على الجهة التي كان يوجد فيها الركاب المصريون، هناك حيث أفرغ اللاجئون كل ما في أمعائهم.

بدأ الفجر يشقّ طريقه عندما بدأت القوارب الصغيرة بالعودة إلى "البسّام" التي كانت تنتظر بصبر في وسط البحر. كان على متنها 73 شخصاً، أغلبهم أكراد يريدون الذهاب عبر اليونان إلى إيطاليا. تم رميهم من اليدين والقدمين كصناديق البطاطس على سطح السفينة الأم. اضطراب البحر جعل من هذه

العملية مسألة غاية في الخطورة. طلب الطبّاخ "عليّ" من السوريين الذهاب إلى الجهة اليسرى من السفينة. كانت الأجواء بين اللاجئين الأكراد متوتّرة تماماً؛ إذ تم سرقة أغراضهم وأمتعتهم الخاصة من قبل المهربين الذين أتوا بهم من الساحل قبل قليل.

بعد ليلةٍ ويومٍ قضاهما "علاء" من دون القدرة على النوم إلا سهواً، قام بالذهاب إلى حيث جلس اللاجئون الأكراد الجدد، كان يمنّي نفسه برؤية صديقه "عمّار عبيد" جالساً بينهم. لم ينقطع عن التفكير به طوال الوقت. لو كان "عمّار" بينهم لتمكّن من أن يجد حلاً لأية مشكلة تطلّ برأسها هنا. لكن هذا الأمل سرعان ما انتهى، إذ لم يكن لـ"عمّار" أي وجود بينهم. كان الرّكاب الأكراد الجدد يزعمون بأنّهم سوريون، مع إبقاء أماكن ولادتهم ومعلوماتهم الشخصية غامضة. "علاء" كان على ثقة بأنهم ليسوا سوريين، إن أصولهم من تركيا أو العراق ويحاولون استغلال الأوضاع كي يتقدّموا بطلبات اللجوء بشكل أسهل في أوروبا.

"لا تاكلوا كتير يا شباب من هادا الأكل". نصحهم "علاء" بذلك بعد فترة. إلا أنه وبعد أن أحضر لهم "عليّ" بعض الطعام لم يستمع أحد إلى نصيحته، بعد قليل وإذا بهم يقذفون كل ما في أمعائهم على الأرض. إنه دوار البحر. بمجرد أن جعلت السفينةُ جزيرةَ "كريت" خلفها حتى بدأ كل من على السطح في سماع صوت التقيؤ الشديد. حتى "عليّ" الذي رأى بأم عينيه نتيجة إطعامه لهم ملقاةً على الألواح الخشبية الأرضية للقارب، صرّح بأن رائحة الطعام لم تكن طبيعية ولا إنسانية مطلقاً.

مع تغيّر اتجاه الرحلة، بدأت الريح تضرب ظهر السفينة وهي تتّجه نحو إيطاليا، دافعة إياها في الاتّجاه المطلوب. كانت الأمور تسير بشكل جيد على وجه البحر. هنا بدأت الطمأنينة تدبّ بين السوريين بعد معرفتهم بأن السفينة تقع الآن في المياه الإقليمية. لم يستمر هذا الشعور لفترة طويلة، فقد طلب كابتن السفينة "أبو أحمد" - وذلك عبر إنذاره المعروف بمرتين متتاليين - إنزال السّرعة بشكل ملحوظ وتبديل الغيار إلى المستوى الأول.

"علاء" سأل "أبو إبراهيم": " شو هادا اللي عم بصير يا الله". لم يجبه وحاول تجنبه قدر الإمكان، مردداً عليه الأسطوانة المعروفة بأنه يقوم بتنفيذ ما يأتيه من أوامر فقط. حينها قام "مصطفى" - نائب القبطان - بتوضيح الأمر للاجئين، وأخبرهم بأن الرحلة تجاه إيطاليا لم تغيّر مسارها، ولكن يجب عليهم تخفيض السرعة فقط، وذلك كي يتم حماية الموتور من التلف بسبب السخونة الناتجة عن الاحتراق.

بعد الظهر التقت السفينة "البسّام" بقارب لتهريب اللاجئين متجه نحو الشواطئ الإيطالية أيضاً. كانوا بحاجة لبعض المواد الغذائية والماء. طلب قبطان السفينة من "عليّ" الإسراع برمي بعض ما لديه إليهم. وهذا ما كان.

العاصفة

في المساء، خَطَرَ على بال "علاء" ملاحظة مهمة، وهي أن الشمس لم تكن تغرب من أمامهم كما كان الحال في الأيام الماضية، بل كانت تنحني في الغروب خلفهم، إلى الجنب نوعاً ما. قال لبعض الفتية الذين كانوا يجلسون حوله "إحنا عم نتحرك جهة الجنوب مو الشمال يا جماعة". "بشّار" كان يجلس بالقرب منهم وسمع أحدهم يقول بأننا نقترب فعلاً من إيطاليا ولا نبتعد أكثر من عشرين ساعة عن شواطئها. ليس هناك سبب للقلق ولكن علينا تبديل القارب فقط. لقد قرر المهربون ذلك على ما يبدو. كان مقرراً أن يحصلوا على 150 راكب من اللاجئين في محطّتهم من اليونان، إلا أنه لم يصل إلى هنا من هؤلاء إلا نصفهم. ثلاثة آلاف دولار للرأس الواحد؛ يعني ذلك بأن هناك حوالي ربع مليون دولار قد لا تحصل عليها هذه العصابة. في حال تم ذلك فعلاً، لن يكون هناك دافع للمخاطرة بسفينة معدنية مكلفة وبموتور جديد، وتقديمها فريسة سهلة لحرس سواحل إيطاليا. على اللاجئين أن يركبوا بعد الآن سفينة أقل تكلفة من هذه التي تبحر بهم بكل تأكيد.

قام "أبو إبراهيم" بالسماح لـ"علاء" باستخدام تليفونه المحمول؛ وذلك من أجل أن يسأل عن أشخاص من معارفه، ربما يريدون الذهاب إلى أوروبا أيضاً. قال "أبو إبراهيم": "من يستطيع أن يحجز مباشرة على السفينة هنا، سوف يحصل على تخفيض مجزي ويدفع ثلث قيمة التسعيرة فقط". أحس "علاء" بأن "أبو إبراهيم" يرتاح له ويريد أن يقول له شيئاً ما. لقد شعر للمرة الأولى بأن "أبو إبراهيم" يملك نظرات صادقة في عينيه، الحيرة والخوف واضحين في عينيه وكلماته "ما توقفش صلاة ودعاء". هكذا نصحه هذا الرجل الميكانيكي الطيب.

وهكذا بدأ القارب الذي سوف يستقبل هؤلاء اللاجئين من على متن "البسّام" بالاقتراب منهم شيئاً فشيئاً، كان قارباً بسيطاً من الخشب، مطلياً باللونين الأبيض والأصفر. لقد امتلأ على آخره بـ350 شخص من اللاجئين. طلب

"مصطفى" و"عليّ" من الرّكاب السوريين أن يلتزموا بالجلوس إلى جانب بعضهم بشكل مُنظّم، وأن يبدأوا بالنزول واحداً بعد الآخر. قال لهم مهدّداً ومحذّراً إنه سوف يلقيهم إلى حرس السواحل المصرية إذا لم يلتزموا بالقفز والانتقال إلى القارب الجديد. هكذا كانت تعليمات القبطان الذي لن يتردد في تسليمهم هناك. بهذه الحركة كان يريد أيضاً تجنب أن يكتشف أو يلاحظ قائد القارب الثاني العدد الحقيقي للاجئين الذين سينتقلون إليه قريباً. لكن سرعان ما سمعنا جميعاً الرّجل - قائد المركب الجديد - يصرخ "لا.. كده كتير.. أنا ما أقدرش، ما عنديش مكان يكفي، دول بشر مش حيوانات!".

بعد لحظات من التوتّر، انتشر الفزع والهلع والهرج والمرج على السفينة التي كان عليها "علاء". طلبت سيدة سورية - أصولها من "دمشق" - من الرجال أن يقاوموا وألا ينفذوا مطالب القبطان بالانتقال إلى القارب الخشبي. صرخت بهم "هيك راح نموت كلنا يا جماعة". ولكن الجميع كانوا يعلمون بأن طاقم السفينة مُزوّدون بالأسلحة. لقد رأى "علاء" بأمّ عينيه مسدّساً حقيقياً موجوداً على طاولة القبطان داخل كابينته. من جهة أخرى ماذا سيفعلون حقاً من غير طاقم السفينة في وسط هذا البحر الواسع؟ هذا لا يعني إلا شيئاً واحداً، وهو الرمي بمصيرهم إلى المجهول.

لفترة من الوقت مشى القاربان بجانب بعضهما. حاول المهربون الموجودون على السفينة المعدنية تحضير الحبال والقطع المعدنية التي تسرّع من تثبيت القارب الآخر - على الجانب إلى جهة السفينة - بعد الاقتراب منه. كان هؤلاء هم الأفضل والأكثر خبرة من أولئك.

بعد ذلك طلب قائد القارب الخشبي بعض الوقود من الديزل، قائلاً بأنه لم يعد لديه الكمية الكافية منه. أجابه نائب القبطان "مصطفى" بمنتهى الحنكة بأن عليه أن يستقبل اللاجئين على متن قاربه أولاً، كي يحصل على ما يريد. إلا أن الرّجل أصرَّ على الحصول على الكمية التي طلبها من الوقود قبل ذلك. في النهاية بدت الأمور وكأن طاقم "البسّام" قد استسلموا لمطلبه وقاموا بإلقاء

خرطوم طويل على الجهة المقابلة حيث يتمايل القارب الخشبي. بعد قليل وإذا بأدوات تثبيت القاربين تتفكك عن بعضها؛ مما جعل الوقود يتسرب من الخرطوم الممدود إلى المياه بسرعة مدهشة. عندها قام طاقم القاربين بالصراخ في وجوه بعضهم وبإلقاء اللوم كلٌّ على الآخر. قدّر "علاء" أنهم بهذه العملية الغبية قد خسروا حوالي 20% من كمية الوقود التي كانت معهم. كانت بقعة الزيت تظهر طافيةً كسجادة واسعة، تمتد على مساحة واضحة على وجه مياه البحر حولهم.

عند أول الخرطوم حيث توجد قطعة التثبيت كانت هناك مشكلة أخرى، إذ امتنعت المضخّة فجأة عن العمل أمام أنظار "أبو إبراهيم". كي يتم ضخّ كمية الديزل بشكل صحيح هناك حاجة لقطعة خاصة بهذا الغرض، كان يعلم تماماً بأنه لن يكشف عن وجودها لديه. لكنه كان يعلم أيضاً بأن كل تلك السفن التي زوّدها قبل ساعات بمياه الشرب لن تدع فرصة لتقديم المساعدة له عند الضرورة.

هنا قرر كابتن السفينة "أبو أحمد" بأن يحل المشكلة ويقوم بالقيادة بطريقة مختلفة. طلب من فنّي الموتورات وضع الغيار الأول الذي يضعه عادة عند زيادة السرعة إلى مداها الأقصى، ذلك بأن أطلق ثلاثة أصوات تحذير متتالية للتو من كابينته، تقدم إلى القارب الخشبي الذي يوجد به القبطان العنيد الباحث عن المشاكسات بشكل واضح. طلب منه البقاء في مكانه دون الذهاب إلى أي اتجاه آخر حتى يتمّ إيجاد حل لقطعة الغيار التي لا غنى عنها من أجل تزويده بالوقود.

بحركة دائرية بدت محسوبة أبحرت "البسّام". مرّت حوالي نصف ساعة على هذا الحال، ثم ظهر أحد قوارب تحميل البشر نحو إيطاليا مقترباً منها. كانت مجرد لحظات إلى أن قام الرجال بتفكيك الماكينة، وتحضير قطعة الغيار الخاصة بالمضخّة، ليتم نقلها إلى القارب الخشبي الآخر. كانت القطعة تزن حوالي 5 كيلوجرام، بدت ثقيلة أثناء محاولة رميها من قارب إلى آخر، لولا ستر

الله لسقطت على أحد الأطفال في القارب الخشبي إياه.

بعد أن تمّ حل المشكلة، رجع "أبو أحمد" إلى تلك النقطة التي التقى فيها القارب الخشبي أول مرة. بعد حوالي ساعة وجد السفينة التي تنتظره، الآن يستطيع إكمال المفاوضات التي بدأها بشأن ترتيب انتقال اللاجئين إلى القارب الجديد. لقد أنجزوا تزويد القارب الصغير بالوقود اللازم.

أدّى التقاء السفينة المصفّحة بالمعادن بالقارب الخشبي إلى إحداث صوت تصادم كبير. نتيجة ذلك وبسبب الضغط الكبير الذي حصل، رأينا لوحاً خشبياً يُنتزع من مكانه على حافّة الجدار الخارجي للقارب الذي كان هزيلاً وضعيفاً. "إنتوا عايزين تغرقونا ولا إيه؟" صرخ بها قبطان القارب الخشبي بوجه طاقم "البسّام". "أنا مش هاخد حد معايا. أنا عندي بشر هنا". بعد ذلك قام بفك المرساة المؤقتة ثم انطلق بسرعة قصوى وذهب دون أن يأخذ معه أي أحد من اللاجئين.

في هذه الأثناء كان "علاء" يجلس أعلى القبّة فوق غرفة الموتورات، وكانت لديه زاوية جيدة لرؤية كل ما يحدث أمامه. هنا قام الكابتن "أبو أحمد" بإعطاء إشارة تدوير الموتورات وقام بملاحقة القارب الخشبي بشكل مباشر. كانت تفصل بين القاربين مسافة 500 متر تقريباً حسب تقدير "علاء". كان "أبو أحمد" ينوي إجبار كابتن القارب الآخر على المساومة من جديد، لكن القارب كان يفلت في كل مرة.

حسب ما علمنا لاحقاً، فقد قام كابتن القارب الخشبي بالاتصال برئاسة عصابة المهربين في الإسكندرية، فالقاربان كانا ينتميان إلى نفس العصابة التي يعملان لديها. قدّم له رئيسهم عرضاً يتمثّل بالحصول على مبلغ 20 ألف دولار في حال توقّف وحمل معه 150 لاجئاً من الرّكاب. هنا استبد الخوف بركّاب القارب الخشبي وبدأوا بجمع الأموال التي معهم. لقد كان قاربهم قديماً جداً، تبدو على ألواحه التفسخ وعلى مفصلاته المعدنية الصدأ. لقد كانوا على علم تام بأن أي

تحميل جديد لعدد كبير من اللاجئين سوف يذهب بهم وبقاربهم في قاع البحر.

عرضوا على قبطانهم مبلغ الـ20 ألف دولار آملين أن يقبل بالعرض، مقابل رفض طلب تحميل لاجئين جدد، مكملاً طريقهم نحو إيطاليا. لكنّه لم يقبل وبرر ذلك بأنه مجبرٌ على قبول انتقال اللاجئين إلى القارب. في حال رفض الطلب سوف ينال عصابة المهربين في الإسكندرية من عائلته في "رشيد". المسألة ليست بسيطة والتهديد واضح. بعد حوالي ساعة من المفاوضات والمطاردة قرر أن يتوقف وأن يخضع للأمر.

في نهاية هذا اليوم العصيب، تم حشر 500 شخص من اللاجئين فوق بعضهم في مساحة لا تتعدّى أمتاراً قليلة على القارب الخشبي المتهالك. كان عددهم يقارب عدد سكان قرية صغيرة نائية. كانت أرجلهم تتداخل مع أرجل غيرهم، شعروا بضغط أيادي الآخرين على أنحاء متفرّقة من أجسامهم، كانت البطون تتصادم مع البطون، والأنفاس تشتبك بالأنفاس.

لقد حشروا حقائبهم وحاجاتهم بين بعضهم البعض كما تُحشر المونة والأسمنت في هياكل البناء. 500 من البشر، لم يستحموا منذ أيام، تبدو هيئتهم - بشعرهم الطويل الأشعث بلا حلاقة وبلا عناية شخصية - مرعبة، كانت بقع التقيؤ واضحة على ثيابهم أيضاً، بينما امتزجت رائحة الغائط برائحة البول بشكل نفاذّ.

كان بطن القارب في الداخل يغوص عميقًا في المياه، بسبب ضغط العدد الهائل من الرّكاب على متنه. أما "علاء" و"حسّان" و"بشّار" فقد تمكنوا من إيجاد أماكن لهم أعلى السطح، بعد مساعدةٍ من طاقم القارب هذا.

بعد نصف ساعة من المعاناة بين الرّكاب المتكدّسين استطاعوا الوصول إلى هناك بصعوبة كبيرة. لم تكن أكثر من مساحة صغيرة تكفي لجلوس بضعة أشخاص في بقعة قريبة جداً من مقدمة القارب. إلا أن الجميع كان يتجنب ذلك المكان الخطر جداً، بسبب عدم وجود أية حماية من الريح العاصفة.

كان الجو بارداً، كان "علاء" يرتعش بشكل واضح وهو ينظر نحو البحر ويلقي نظراته الأخيرة على سفينة "البسّام" التي بدت مثل نقطة صغيرة تلوح في الأفق. بعد قليل اختفت ولم يعد لها وجود.

أمّا القبطان "أبو أحمد" وصحبته من طاقم "البسّام"، فقد تصرفوا بعد ذلك وكأنهم صيادو سمك عاديّون وليسوا من عصابات تجار البشر، إذ نشروا شباكهم في وسط البحر، آملين بالعودة إلى شواطئ مصر محمّلين بما يجود البحر به عليهم من السردين وغيره من أنواع السمك. هذا ما حكاه "علاء" عنهم فيما بعد.

***

كان "عمّار" يملأ ساعاته وأيامه في "إسطنبول" بالانتظار. لقد رجع إلى عادته القديمة بالتدخين، إنه يدّخن الآن أكثر من أي وقت مضى. في أحد الأيام التقى "عمّار" بـ"ربيع" في أحد المقاهي الشهيرة هناك، فأخبره كلمتين اثنتين: اليوم مساءً.

إلا أنه وبعد أن رجع إلى الفندق الذي كان ينزل فيه أخذ قسطاً من النوم، رغم كل متاعبه ومشاغله أجرى مكالمة مع "ربيع" كانت صاخبة جداً. قال "ربيع" فيها "هدول الحثالة راح يسكروا عليكم صندوق للبضائع، هادا كتير شي خطير". لقد رفض "ربيع" بشدة اقتراح رئيس أحد عصابات التهريب التي يتواصل معها. "ربيع" قال أيضاً إنه التقى اليوم مساءً بالمسؤول عن هذه الفكرة وانفجر غضباً أمامه. قال "عمّار": "سوف تُهلِكون الناس في تلك الصناديق حتماً". ثم أتبعه بسؤال منفعل "فكرتوا طيب شو ممكن يصير في حال نسيوا صندوق الشحن بالمرفأ؟ كيف ممكن لهدول الناس يضلوا أربع أو خمس أيام بلا تهوية؟". قال "ربيع" لـ"عمّار" بكلمات مواسية وهادئة "لا تخاف يا صديقي، راح نلاقي حل أفضل أكيد".

في تلك الليلة المربكة تناول "عمّار" علبة كاملة من الأقراص المهدّئة التي كانت معه.

***

لقد انتهت حتى الآن الليلة السادسة وهم في وسط البحر، لكنها كانت الأولى على متن ذلك القارب الخشبي الصغير. لم يكن يحمل أية علامة مكتوبة على جدرانه الخارجية، بالإضافة إلى أن طاقمه لم يكونوا لطيفين تجاه اللاجئين بنفس الدرجة التي كان عليها طاقم "البسّام". لقد كان الاختلاف واضحاً في كل شيء. أيضاً فقد كان واضحاً عليهم عدم العلم بما يقومون به، ستة أشخاص نحيلو الأجساد، يتصرفون بطريقة غريبة ولا وجود لروح الفريق بينهم. ليس لديهم أي شيء يدل على أنهم يشكلون فريقاً منسجماً فيما بينهم. كان هناك اثنان منهم فقط ممّن يملكون خبرة في قيادة رحلات طويلة نسبياً كهذه.

أما القبطان "عبد الله"، الذي غالباً ما يرتدي قبّعة جلدية عتيقة، فقد ظهر عليه قليل من اللطف، وكان واضحاً أنه يحاول أن يأخذ بالحسبان مشاعر اللاجئين ويتودد إليهم. طلب من بعض كبار السن منهم أن يناموا على سطح الكابينة الرئيسية لأنه أفضل بالنسبة لهم. لكنّ "علاء" كان حذراً منه، وأخذ عليه أنه لا يمتلك شخصية قوية على القارب ويتصرف وكأنه شخص لا يختلف عن البقية، وليس كقبطان له سلطة. حتى صوته كان خفيفاً وناعماً بعض الشيء بحيث لا يسمع أفراد الطاقم ما يقوله في أحيان كثيرة. كانت لديه شكوك كبيرة فيما إذا كان هذا الشخص هو فعلاً الشخص المناسب للقيام بمهمّة محفوفة بالمخاطر كهذه، بالإضافة إلى احتياجها إلى قدرة واضحة على اتخاذ القرارات الحاسمة.

في هذا الصباح، قام "علاء" بجولة على سطح القارب رغم صعوبة التنقل بين أكوام الرّكاب الممدودة عليه. كان يبحث طوال الوقت عن مكان لقدمه أثناء تنقله هذا. كان يأمل بأن يجد في هذا التجمع وجهاً يعرفه.

بالقرب من كابينة المطبخ النتنة، التقى بمدرّس أصله من مدينة "حمص" وسط

سوريا، يحمل في يده تليفون حديث مزوّد بجهاز تحديد المكان "جي بي إس". في محاولة للمحافظة على شحنه كان نادراً ما يفتحه أثناء الرحلة. تم إخبار اللاجئين بأنهم قريبون جداً من المياه الدولية المقابلة للسواحل الإيطالية. إلا أن جهاز الـ"جي بي إس" كان له رأي آخر. لقد أظهر الجهاز بأن السّفينة توجد الآن على مسافة عشرات الأميال أمام مدينة "بنغازي"، عاصمة القطاع الشرقي من ليبيا. هذا المكان يبعد كثيراً عن إيطاليا حتماً. رجع المدرّس وأكّد بأن السفينة تقترب بالفعل من جزيرة "سيسيليا" لكنها تمشي بسرعة بطيئة جداً. في حال بقيت على هذه السرعة سوف تحتاج إلى خمسة أيام للوصول إلى هناك. هذه مدّة طويلة جداً.

يشير الوقت إلى ما بعد الظهر بقليل، رأينا فجأة سفينة التهريب خضراء اللون، تلك التي تم استعارة قطعة غيار المضخّة منها لطاقم سفينة "البسّام" قبل ذلك. لقد ظهرت فيما كانت الأمواج تضربها يميناً وشمالاً. عشرات الأيدي بدأت تلوّح منها. قال الكابتن "عبد الله" "لديهم خلل ما في الموتور، يجب علينا أن نساعدهم ونسحبهم معنا إلى إيطاليا"، قال ذلك بصوت مرتفع موجّهاً كلامه إلى الرّكاب. هنا ساد الهرج والمرج مجدداً على متن القارب، أشار البعض بأيديهم مظهرين عدم التفهّم والغيظ. قال القبطان في محاولة منه لتخفيف الإحباط والاحتقان "إحنا بعاد عن إيطاليا مسافة 4 ساعات أو كده". قال أيضاً إنه لن يسمح لأحد بالانتقال إلى قاربنا هذا. إلا أن الأصوات بدأت تتعالى ضد اقتراحه بسحب القارب معنا نحو إيطاليا، فالقارب الخشبي صغير الحجم وهزيل، وبالكاد يستطيع سحب نفسه.

هنا بدأت الأجواء بالتوتر والتعكّر. بعض الرجال من الرّكاب أظهروا عصبية واضحة، كان واضحاً أنه على القبطان أن يأخذ غضبهم بجديّة، لأنه بطاقمه ورجاله الستة لا يملك فرصة لمقاومتهم في حال تطوّرت الأمور نحو الأسوأ. "نحن أكثر عدداً منكم، سوف نقتلكم قبل أن نموت وحدنا" هكذا صرخ بعض الرجال غاضبين ومهددين القبطان ورجاله على القارب.

رجع الرّجل إلى كابينته، وعدّل مسار القارب قبل أن يبدأ بعد حوالي نصف ساعة من الاقتراب مجدّداً من السفينة التي أصابها العطب. حاول التحدّث مرة أخرى إلى الركّاب. لم يكن لديه بديل آخر. لقد قام رئيس العصابة في الإسكندرية بتهديده بإرسال سفينة "البسّام" إليه لتحطم قاربه بجسمها المعدني الكبير إذا خالف أوامرهم. قال "عندها سوف نموت جميعاً، ليس أمامنا حل آخر". لم يكن لدى اللاجئين أي علم فيما إذا كان يقول الحقيقة أو غير ذلك، إلا أنّهم في النهاية استسلموا لطلبه وقبلوا ذلك بشرط ألا يقوم باستقبال أي راكب جديد من على متنها.

لكن الحقيقة كانت تقول بأن القبطان "عبد الله" قام فعلاً بطلب مكافأة مالية من العصابة هناك كي ينفذ طلبهم في مساعدة القارب التالف. لقد وعدوه بمبلغ إضافي يبلغ 100 ألف دولار، زيادةً على المبلغ المتفق عليه. لقد أخبر بذلك أحد السوريين؛ حيث كان يجلس بالقرب من كابينة القبطان، ويبدو أنه سمع كل شيء وهم يتهامسون ويتفاوضون على التليفون.

وهكذا أعادوا القارب المعطوب إلى العمل مرة أخرى.

في اليوم السابع للرحلة، سأل "علاء" أحد المهربين عن الوقت المتبقي للوصول إلى إيطاليا، فأجابه أنها ما هي إلا بضع ساعات، سبعة أو ثمانية على أغلب الظن! لكن جهاز الـ"جي بي إس" أشار مجدداً إلى حقيقة مخالفة تماماً، إذ أظهر القارب في مكان قريب جداً من سواحل "بنغازي" الليبية. "هذا الرجل عم يكذب علينا يا شباب" قالها بعض الرجال لـ"علاء"، فيما عبّر آخرون عن العته الذي يعتمد على خردة كهذه: هذا الجهاز مجنون! كان الركاب ما زالوا بحالة نفسية سيئة على السطح، رائحة التقيؤ قاتلة، تعب كبير يسيطر عليهم، وإحساس شديد بالعجز عن معرفة الوقت الذي سيصلون فيه إلى إيطاليا.

بدأت الأمواج تضرب القارب بقسوة مرة أخرى، وأصبحت أعلى حتى من تلك التي رأوها أمام جزيرة "كريت". رياح شديدة بدأت هي الأخرى بضرب القارب

آتيةً من جهة الشمال، من الجهة والأمنية التي يتجهون إليها: أوروبا .. طلب القبطان من جميع الركاب أن ينتقلوا إلى الجهة اليسرى، حتى يتم تحقيق توازن ما في مواجهة هذه الريح والأوضاع المقلقة الخطرة. عادت الأمواج تضرب من الجهة اليسرى وتصعد بقوة على سطح القارب بلا استئذان. بدأ الأطفال بالبكاء والصراخ. "علاء" شاهد طفلاً لا يبلغ من العمر أكثر من عشر سنوات يمسك بيد والده بقوة ويقول له باكياً "لا تتركني أموت هون لحالي يا بابا". فيما كان الأب المسكين لا يملك إلا البكاء بحسرة ومرارة.

في صباح اليوم التالي، تم ملاحظة أن الشمس أتت على القارب من الجهة الخاطئة، لم تكن تظهر من الجهة التي أشرقت عليها في اليومين الماضيين. قال "علاء" محدثاً نفسه ثم الآخرين الجالسين جنبه "إحنا ماشيين بالاتجاه الخطأ يبدو". قام فجأةً وذهب نحو المدرّس الحمصي الذي كان واقفاً أمام باب المطبخ الذي تخرج منه رائحة نتنة، وترجّاه أن يفتح جهاز الـ"جي بي إس" مرة أخرى. أظهر الجهاز مجدداً أن السفينة تقترب حقّاً من "بنغازي" وليس من إيطاليا. سأل بعدها أحد المهربين عن الوضع، وكيف فعلوا ذلك؟ ولماذا فعلوا ذلك؟، لكنّه لم يحصل منه على جواب أبداً.

مع حلول الظهر، سمعوا صوتاً قادماً من السفينة التي تركوها منذ فترة بعد أن ساعدوا قبطانها على السير والإبحار. هذه المرّة طلب الرجل ماءً للشرب، لقد نفدت كل الكمية الموجودة على السطح. ولكن حتى هنا على هذا القارب التعيس الذي يركبه "علاء" والآخرون لم يعد هناك ماء صالح يكفي للشرب. في خزانات المياه الموضوعة على السقف، تم ملاحظة وجود مياه بدأت تتلوّن بلون أخضر. من الطبيعي بعد إبحارٍ لمدة أسبوع ونصف تحت الشمس الحارقة أن تظهر الأعشاب الضارة وتتكاثر في المياه الموضوعة هنا.

مرَّ القارب ذلك اليوم بأمواج عالية مخيفة، أخذ اللاجئون يمسكون بأيديهم وأرجلهم بما يستطيعون من أشياء على السطح، محاولين تثبيت أنفسهم بإحكام في هذا الوضع الرهيب. من قوة التوتر والشدّ التي أبداها "علاء" وهو

يحاول تثبيت قدميه لم يعد يشعر بهما مطلقاً. كان "التنميل" قد أصابهم جميعاً. استمرت الأمواج تضرب بأذرعها على جوانب القارب وسطحه، كانت لا تذهب إلى البحر إلا لتأتي وتضرب بقوة أكبر.

في تلك الليلة الظلماء التي عاشها الناس على متن القارب، كان يلمع في كبد السماء نجمٌ كبير، بينما كانت الأمواج المرتفعة تهزّ "علاء" يميناً وشمالاً، كان ينظر هو إلى تلك النقطة من السماء، لم يرها منذ مدّةٍ واضحةً كما هي عليه الآن. كان المنظر رائقاً وكأن أحدهم وضع قطعة سكرٍ بيضاء على لوحٍ من القماش الأسود الغامق. وصف "علاء" هذا الصفاء المبهج بكلماته، مستعيراً ألفاظه من تلك الصنعة التي تعلّمها من أهله وورثها عنهم.

***

حاول "عمّار" أن يطمأن زوجته على التليفون، "رونالدا" التي صارت أقل صبراً يوماً بعد آخر، خاصةً بعد عدم تمكّنها من الاتصال به لمدّة أسبوع، كانت تقول له بأنها لا تريد أن تخسره. كان يؤكّد لها أنه سوف يتمكّن من هدفه بشكل آمن حتماً "راح نلتقي ونرجع نشوف بعضنا يا رونالدا، لا تخافي".

"دير بالك على حالك يا بابا" قالتها له ابنته الكبرى، التي كانت تعبر عن حبّها الكبير له في كل مناسبة تحدّثه فيها. بينما كان يقول لابنته الصغرى ذات الأعوام الخمسة "أنا بحبك كتير يا بابا، كل شي راح يكون تمام إن شاء الله". لم يكن يستطيع التعبير لهم عن إحباطه ويأسه الكبيرين، غالباً ما يستلقي على ظهره، واضعاً يديه خلف رأسه تاركاً عينيه تحدّقان في السقف لوقت طويل.

***

بدأت خيوط الفجر تنساب على سطح مياه البحر التي بدت رمادية مائلة إلى البياض نوعاً ما، لقد كان اليوم التاسع ضبابياً وغائماً. من مسافة لا تبعد كثيراً عن قاربهم، شاهدوا قطعة من حقيبة ثياب طافية تتمايل بين الأمواج. بعد

قليل اكتشف "علاء" جاكيت نجاة برتقالي اللون يقترب من جدار القارب، ثم شاهد حذاءً نسائياً من البلاستيك. بدأت الحيرة والتوتر بالتسرب بين الرّكاب. مازال البعض يصدق المهربين بأنهم يقتربون من الشواطئ الإيطالية. قال أحدهم محاولاً تفسير ما شاهدوه، بأن هذه الأشياء قد تكون للاجئين قاموا برمي أشيائهم في البحر قبل وصولهم إلى إيطاليا قبلنا. كانوا يجاهدون كي يُمنّوا أنفسهم وكي لا يفقدوا الأمل بأية طريقة كانت. فيما بدأ آخرون يرون بأم أعينهم آثار الموت والمصير الذي لاقاه اللاجئون قبلهم. كانوا يتحدّثون إلى أنفسهم ويتناقشون، يصلّون ويبتهلون في حيرة واضحة. يبدو أن هناك سفينة تحمل لاجئين قد غرقت قبل قليل في مكان لا يبتعد عن هنا كثيراً. كانت علامات الغرق واضحة تماماً.

سأل "علاء" منادياً القبطان بعد أن شاهده نازلاً من كابينته لقضاء حاجته. "قلّنا وين إحنا هلق يا أخي منشان الله؟". أجابه القبطان أخيراً، بكلمات باردة، حتى دون أن يلتفت إليه "إحنا مش في إيطاليا، إحنا في بنغازي، مرتاح كدة!".

في هذه اللحظة فقد "علاء" كل ما لديه من أمل وغرق في يأسٍ كبير.

لقد عرفوا الحقيقة بعد ذلك بقليل؛ حيث قام أحد اللاجئين بسماع مكالمة واضحة بين القبطان ورئيس أحد عصابات التهريب في الإسكندرية عن طريق الـ"سكايب". لقد طلب منهم مبلغاً إضافياً، 30 ألف يورو، أمّا في حال لم يلتزموا بدفع هذا المبلغ إلى عائلته في "رشيد" خلال ساعات قليلة، فسوف يعود باللاجئين جميعهم إلى مصر وسوف يقوم بتسليمهم إلى السّلطات هناك. منذ يومين أو أكثر قام هذا القبطان بدفع القارب عمداً نحو شواطئ ليبيا ذهاباً وإياباً. يمكن القول إن اللاجئين كانوا في حكم الواقع مخطوفين لديه، هنا في وسط البحر. بالنسبة لـ"علاء"، كانت هذه هي المرة الثانية الذي يتم فيها اختطافه في هذه الرحلة التي لا تنتهي.

قال "علاء" لأخيه "حسّان" بصوت خافت وضعيف "راح نموت هون".

بين الحياة والموت

كانت الإشاعة تنتشر بشكل هاديء وغير ملحوظ في البداية، ثم بسرعة بدأت تنتشر بين الرجال، لقد سمع بها أحد الفتية الأكراد من على سطح كابينة القيادة، ثم انتشرت كالنار في الهشيم، كانت صوتاً خافتاً، ثم أصبحت مثل قرع الطبول المتزايد. أخذ اللاجئون الأكراد قراراً بالمقاومة، وبدأت الأصوات تتنادى للتكاتف وتنظيم الصفوف بالأيادي المتشابكة. كانت الساعة تشير إلى التاسعة أو العاشرة من صباح اليوم العاشر من الرّحلة. ماهي إلا دقائق حتى ارتفعت الرؤوس محدّقة في السماء: إنها طائرة هيلوكوبترا! لقد رآها الجميع وأصبحت واضحة تماماً، كانت مثل بقعة سوداء تكبر شيئاً فشيئاً في كبد السماء الرمادية، أصبحت الآن فوقهم تماماً. ظلت تحوم فوق المكان لمدّة ساعتين.

أسرع المهرّبون إلى مغادرة أماكنهم المعروفة، وتسللوا داخلين إلى حجرة الموتورات أسفل القارب، كانوا يريدون ألا يتعرف عليهم أحد عن طريق التصوير، هذا قد ينتهي بهم إلى السجن يوماً ما. في داخل القارب حاولوا تبديل ملابسهم المتسخة ببقع الزيت الفاسد، ولبسوا تيشيرتات وبنطلونات نظيفة نوعاً ما. قام قبطان القارب بالطلب من أحد الشباب أن يجلس مكانه خلف عجلة القيادة. طلب "علاء" من ذلك الشاب بصوت واضح "روح من هون بسرعة يا أجدب، إنت ما بتعرف شو معناتها هي الشغلة". "علاء" كان يعرف سذاجة الشاب وتهوره، ويعرف بأنّ موقفاً كهذا قد يدفع ثمنه لاحقاً. لم يكن ذلك الشاب العبيط يعلم بأن عملاً كهذا قد يدفع خفر السواحل إلى الشكّ به على أنه مهرب محترف للبشر.

لم يستطع أحدٌ على متن السفينة تحديد العلم الذي كانت ترفعه تلك الطائرة القادمة. أشاع البعض بأن العلم تابع للبحرية اليونانية. إنهم خفر السواحل اليونان. حاول بعض الشباب الاختفاء رغم تعبهم الشديد. هل فعلوا ما فعلوه وتحملوا كل هذه المتاعب من أجل أن يسقطوا بقبضة خفر السواحل اليونانية

أخيراً؟ كان ذلك الثمن - الذي دفعوه من أجل طريقة التهريب هذه من اليونان إلى إيطاليا - مُكلفاً جداً. كل ذلك كان من أجل أن يظلّوا على قيد الحياة. قال البعض متسائلاً بيأس: هل كان أفضل لنا لو بقينا في مصر؟! في مصر كانت لدينا عائلاتنا، في مصر كان يمكننا العمل والحصول على المال والانتظار حتى تأتي فرصة أخرى مناسبة للهروب بجلودنا، في محاولة أقل تكلفة وخطورة من هذه.

بعد وقت مضى، بدأت ظلال أخرى تحطّ رحالها على سطح البحر، كانت كبيرة هذه المرة، وتتقدم ببطء واضح. لم تكن هذه الظلال الشبحية سوى ثلاث سفن، على وشك الاقتراب من اتجاهاتٍ ثلاثةٍ نحو القارب. كانت أكبرهم سفينة ضخمة، بارتفاع 90 متراً وبقالب معدني مائل للزرقة مكتوب على وسطه "Maerske Line". كانت سفينة شحن هائلة مليئة بالحاويات الكبيرة. السفينتان الأخرتان جاءتا واحدة من جهة اليسار والأخرى من جهة اليمين، كان الوضع يبدو وكأن السفن تحاول محاصرة القارب الهزيل من كل الجهات.

لاحظ اللاجئون بأن السفينة الكبيرة أوقفت موتوراتها، كما طلبت منها السفية المرافقة، هذا ما عرفه اللاجئون بعد ذلك. كانت الأمواج الصادرة عن جسم هذه السفينة العملاقة تضرب القارب الخشبي الصغير بقسوة، وبشكل يمكن حتى أن يُتلفه. إلا أنّ وجود السفينة العملاقة بهذا الاتجاه خفّف من حدة الرياح ومن أثر الأمواج الشديدة. كان منظراً غريباً، تبدو السفينة وكأنها ميناء صغير في وسط البحر. تساءل "علاء" بحيرةٍ "شو عم بصير هلق، ما بصدق بإنو كل هدول إجوا منشاننا بس".

سمع اللاجئون على متن القارب الوضيع كلمات متقطعة بسبب الرياح "نحن خفر السّواحل التابعون لجمهورية إيطاليا!، يرجى إطفاء جميع الموتورات الآن، وإلا عليكم أن تتحمّلوا النتائج".

***

تلقّى "عمّار" - الذي كان ينزل في فندق في "إسطنبول" - مكالمة تليفونية من "ربيع".. "سوف تنطلق بسرعة قريباً، لن يكون هناك أي محطّة في مكان ما، ستذهب مباشرة إلى هناك" هكذا قال "ربيع" واثقاً على التليفون. خرج "عمّار" وسلّم غرفته في الفندق وركب تاكسي إلى مكان معيّن اتفقا عليه. هناك وجد نفسه أمام أتوبيس حديث مخصص لنقل السّياح وبداخله يوجد تقريباً 55 لاجئاً، لم يكن من بينهم سوى ثلاثة سوريين فقط. أمّا الباقي فكانت أصولهم من "أذربيجان" و"أوزباكستان"، جميعهم كانوا نياماً.

غادر الأتوبيس "إسطنبول" وذهب باتجاه جبالٍ صغيرةٍ على طريق البحر الأسود. قام "عمّار" بتحديد مكانهم من خلال تشغيل جهاز الـ"جي بي إس" الذي كان يحمله معه على التليفون. كان طريقهم خلال قرى نائية وغير مسكونة، يصعدون طريقاً مرتفعاً تلو الآخر، ولا يبتعدون عن الساحل سوى 10 كيلومتر. فجأةً توقف السائق وعاد راجعاً نحو "إسطنبول". لم يعطهم أي تفسير لخطوته تلك. عاد "عمّار" إلى الفندق الذي تركه في "إسطنبول" واتصل بـ"ربيع" على الفور حتى يعرف ماذا حصل فعلاً. كانت هناك سفينة شحن كبيرة تنتظره هو والآخرين على البحر الأسود. كما جرى الاتفاق، قام المهربون برشوة خفر السواحل من تلك الجهة هناك، واستطاعوا الحصول على تغطية لفرارهم ما بين الساعة الثانية والثالثة عند الفجر. لكن السّائق جاء متأخراً لساعةٍ كاملة، عندها أكملت العبّارة رحلتها عند موعدها من دون أن تنتظر أحداً. هذا ما قاله "ربيع" لـ"عمّار" على التليفون موضّحاً له ما جرى.

جلس "عمّار" بملابسه الداخلية في الغرفة، اتصل بكثير من الناس، حاول الاتصال بأصدقائه القدامى لإعادة المياه لبعض مجاريها. لقد علم بأن "فادي" - عميل المهربين الذي أنزله لمدة شهرين عند "أبو حسّان" في مصر - موجود الآن في "إسطنبول". "فادي" يعمل أيضاً في التجارة، ويقوم بجولات دائمة لمتابعة أموره وأشغاله وأعماله. سأله "فادي" معاتباً على التليفون "إنت ماقدرتش تخرج من هنا؟!". اتفقا على لقاء قريب في بيت "فادي" الذي أحضر له اثنين من

المهربين وأجلسهما أمامه، كان أحدهما سوري الأصل من مدينة "درعا"، من نفس المدينة التي منها "فادي". ثم قاما واحداً بعد الآخر بعرض خدماتهما على "عمّار".

قال الأول "تعال معي يا زلمة". كان خياره أن يذهبوا في مجموعة نحو اليونان مشياً. "راح نام بالنهار، ونمشي بالليل". سوف تستغرق الرحلة حوالي 3 أيام. عند الحدود سوف يكون بانتظارنا أتوبيسات صغيرة. هذه الطريقة من التهريب يقوم بها مرتين في الشهر، مع وجود مجموعات تضم حوالي 30 شخصاً في كل مرة. هذه الرحلة تكلف 2000 دولار، ويجب على الشخص أن يحضر حذاءً يصلح للمشي الصعب بين الجبال، وبطانيةً خاصّةً للنوم في الخلاء تكون عادةً من مادة النايلون. "عمّار" لم يعجبه العرض؛ إذ كانت لديه مشكلة كبيرة في ركبته ويعاني آلاماً قاسية منها، لن يستطيع الاستمرار بهذه الرحلة الشاقة.

عرض عليه المهرّب الثاني، "تعال معي، باخدك على "مرمرة"، هنيك في إلنا يخت سياحي، بكرة بوصلك على "رودوس""، ثم قال بخصوص السعر: 3 آلاف دولار. وافق "عمّار" فوراً. ترك "عمّار" حقيبة شخصية له مع "فادي" كي يسلّمها إلى زوجته في القاهرة عندما يعود. لم يعد بحاجة لشيء الآن، فقط محفظة صغيرة يمكنه وضعها على وسطه.

سافر إلى "مرمرة" كما طُلب منه، ونزل في فندق دفع فيه 25 دولار لليلة. في اليوم الثاني التقى بصاحب اليخت، كان شخصاً روسي الأصل، تجلس بجانبه زوجته وتحتضن طفلاً رضيعاً على ذراعيها. قال صاحب اليخت "أنا لا أهرب إلا أشخاصاً من روسيا، ولكن هذه المرة وافقت من أجلك". كان "عمّار" يبدو أوروبي المظهر، لذلك وافق الرجل على ذلك. لكن الأمور متوقفة الآن على أحوال الطقس، فقاربه يبلغ من الطول 3 أمتار فقط. إنه فريسة سهلة للبحر ولأمواجه الشديدة.

لازم "عمّار" فراشه في غرفته طوال الوقت هنا في "مرمرة". في الأيام الثلاثة

التالية كان يسمع أصوات السيارات المزعجة في الشارع، بالإضافة إلى أصوات الرجال والنساء العالية في المقاهي المجاورة، صوت قرقرة الشيشة كان حاضراً في أذنيه. في بعض الأحيان كان يتجاهل الرد على التليفون عندما يرى اسم زوجته يظهر أمامه على شاشة التليفون المحمول.

***

في البداية، قام الإيطاليون بإنزال النساء والأطفال من على سطح القارب، ثم قاموا بإنزال الرجال في اليوم الثاني. عملية الإنقاذ هذه استمرت يوماً وليلة. كان الجنود الأوروبيون -الذين يقومون بإنقاذ الناس هنا - يشبهون روّاد الفضاء بالنسبة للاجئين البؤساء. ارتدى المنقذون بدلات وقاية بيضاء من النايلون، واضعين على أفواههم الكمّامات، وعلى رؤوسهم قبّعات الحماية، فيما لبس أغلبهم قفّازات بيضاء اللون. كل هذا كان يدل على خوف من إمكانية انتقال عدوى أمراض معينة من اللاجئين إليهم.

لاحظ فريق الإنقاذ بأن "علاء" كان يتحدث الإنجليزية بشكل جيد بالمقارنة مع بقية اللاجئين، طلبوا منه المساعدة في التواصل مع الناس. فجأةً وجد "علاء" نفسه مسؤولاً عن الخطوة التالية على طريق الحرية التي يحلم بها كثير من اللاجئين هنا. إلا أن هذا الحال لم يستمر طويلاً؛ إذ سرعان ما تم احتجازه هو الآخر، بدلاً من ذلك، أصبح هو الآن من يتلقى التعليمات والأوامر. لقد رأى بأم عينيه كيف يتدافع البشر وراء بعضهم، كيف تتعالى الصيحات وكيف يتشاجرون ويشتكون من بعضهم. كان كل شخص يريد أن يكون هو التالي، أشخاص قليلون فقط انسحبوا من هذه الفوضى آخذين بعين الاعتبار حالة غيرهم، ينتظرون حظهم مبتعدين قليلاً. قرر فريق الإنقاذ أن يبدأ بنقل الأشخاص ذوي الحالات الإضطرارية، كان من بينهم قبطان المهربين وبعض الأشخاص كبار السن. فجأةً قام عدد من اللاجئين الأكراد بالهجوم جهة القوارب، وبدت الأجواء مشحونة وكأنها على أبواب معركة قد تندلع بينهم وبين مجموعةٍ من اللاجئين السوريين السنّة في أية لحظة. صرخ الإيطاليون

بحزم طالبين من الناس أن يبقوا هادئين. لقد أوقفوا عملية الإنقاذ لبعض الوقت وهدّدوا باستخدام السّلاح عند الضرورة، عندها هدأ الجميع وعادوا إلى رشدهم.

قال الموظف الإيطالي لـ"علاء": "لقد حالفكم الحظ كثيراً، يمكن أن يجد المرء ابتسامة جديدة على وجوهكم في حياتكم القادمة التي مُنحت لكم". يبدو أن البحرية الإيطالية قد تلقّت اتصالاً عاجلاً يفيد بوجود قارب للاجئين قد اقترب من الهلاك، ويكاد يغرق كلُ من فيه وسط البحر. لأجل ذلك فقط جاؤوا إلى هنا وقدّموا ما رآه اللاجئون بأعينهم. أي "مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد" كما قال "علاء" لنفسه؛ لقد كانت مأساة الآخرين حظّاً سعيداً لهم! قال الموظف الإيطالي بحسرة "بالأمس قمت بيدي هاتين بانتشال جثث ثلاثة أشخاص من البحر، رجلين وامرأة". هنا تذكّر "علاء" رؤيته للحذاء النسائي الذي كانت تقذفه أمواج البحر أمامهم منذ بضعة أيام فقط.

أنا الآن جالسٌ في جبال الألب؛ حيث تفصلني عن البحر المتوسط مسافة 2000 كيلومتر تقريباً. بعد ما حصل معنا نحن - المراسلين الصحفيين - في مصر وتركيا قررت أن أبتعد مسافةً عن الأمور والأحداث وأن ألتزم العزلة قليلاً. منذ أن عدتُ راجعاً إلى هنا مرّت أربعة أسابيع بالتمام. جلست على طاولتي وبدأت الانشغال بمشاريع كنت أجهز لها مسبقاً. رنَّ تليفوني المحمول، قلت في نفسي سأرد على هذا التليفون المجهول. "خلص.. صرنا هلق على سفينة إيطالية، جنبي قاعد حسّان، حسّان مو مصدق إني عم بحكي معك، عم يحط دانو عالسماعة من الفرحة" هكذا اندفعت كلمات "علاء" من سماعة التليفون.

وهكذا سأصبح أنا الصّحفي - الذي يكتب عن مهرّبي البشر- أحد هؤلاء المهربين قريباً أيضاً.

إحدى أهم وظائف حدود بلدنا هي حماية الناس وتحسين أوضاع مجتمعاتنا. ولكن يحدث أيضاً أن تتحول حدودنا إلى مناطق خَطِرة على الناس، بل تساهم

هي الأخرى في انحدار أوضاع هذه المجتمعات. هل يجب علينا ألا نتجاوز القوانين وأن نحترمها في كل موقف؟ لقد وعدت أنا والمصور الفوتوغرافي "ستانيسلاف" بأن نبذل قصارى جهدنا في مساعدة هؤلاء الفتية السوريين. قلنا لهم إننا سوف نساعدهم ونحضرهم من إيطاليا بمجرد أن يصلوا إلى هناك. نريد ألا نمنح فرصة أخرى للمجرمين كي يلعبوا بمصائرهم. نريد تجنّب أن يعرّض "علاء" و"حسّان" و"بشّار" حياتهم للمخاطر مجدّداً. لكنّنا بهذا الوعد سوف نتحدّى أيضاً القوانين المعروفة هنا في أوروبا. هذا يعني أننا نقوم بإدخال بشر بلا وثائق رسمية وبدون فيزا نظامية إلى الأراضي الأوروبية. لم يكن هذا الشيء يتعلق بقرار شجاع أو كذا، وإنما بسلوك ما، يجعلنا لا نفقد احترامنا لأنفسنا قبل كل شيء.

لقد تمكّن "علاء" و"حسّان" من الدخول إلى حدود القارة الخارجية، ولكن عليهم الآن التفكير في مشكلة أخرى تتعلّق بكيفية العبور خلال حدودها الدّاخلية أيضاً. هذه القارة التي تقدّم نفسها كجسم واحد متماسك، تنقسم في الدّاخل - من وجهة نظر أمنية - إلى نصفين مختلفين، الشمال والجنوب. النصف الجنوبي محمي بالبحر الأبيض المتوسط، الذي يشكّل قبراً جماعياً هائلاً يحيط بالقارة، ويفصلها تماماً عن تلك البلدان التي لا تمتلك شيئاً إلا الفقر والفقراء. هذا البحر هو تماماً ما يفصل أولئك البشر الذين يعيشون هناك في أجواء الحروب عن هؤلاء الذين يعيشون هنا في أمن وأمان. رغم ذلك، فمن يستطيع اجتياز هذا العائق المُحصّن، سوف يكون بانتظاره عائق آخر لا يقل صعوبة: جبال الألب؛ حيث يوجد ممرّا "جوتهارد" و"برينر" الشهيران.

عمّار جالاسو كاسيميرو

لقد فقد "عمّار" صبره في "مرمرة" بخصوص المهرب الروسي الذي تعرف عليه هناك. فالبحر خطير، بينما القارب صغير بلا حول ولا قوة. لقد شكره بأدب وعاد راجعاً إلى "إسطنبول"، هنا حيث المقر الرئيسي للمهربين وأعوانهم. بدأ "عمّار" يشعر بأنه أسير حلقة مفرغة كبيرة. حجز لنفسه غرفة حقيرة في فندق رخيص لا تكلفه سوى 25 دولار. في هذه الأثناء قام البعض بتقديم نصيحة له بالتواصل مع أحد أكثر المهربين مهارةً وشهرة، كان شخصاً عراقياً من أصل كردي، السوبر ستار "أبو جينار". سأله المهرب الجديد الذي التقاه في مقهى قريب من الفندق "قلي شنو تريد". أجابه "عمّار": "ما بعرف، قلي إنت شو في عندك".

"أبو جينار" له هيئة غريبة، كان في منتصف الأربعينات من العمر، بشعر كثيف يعلوه الشيب، رغم محاولات الصبغة التي كانت تظهر عليه. له بطن صغير الحجم يمتد أمامه، وشاربان جيّدا الحلاقة والتهذيب. كان صاحب لهجة غريبة وصعبة وصوت غليظ، يتحدّث بسرعة كبيرة، تخرج الكلمات مسرعة بين شفتيه لدرجة لم يستطع فيها "عمّار" أن يفهم بعضها. هذه الطريقة في الحديث - حيث كل كلمة تخضع للغموض - هي أحد أساليب اللف والدوران؛ وذلك حتى لا يكون هناك أية كلمة قابلة للإثبات والبرهان بعد التوافق عليها.

لقد عرض عليه "أبو جينار" جواز سفر إيطالي حقيقي يمكن وضع صورة مزورة عليه، مقابل 3 آلاف يورو. كان "عمّار" يعرف من خلال "ربيع" بأن هناك ورشة للتزوير في "إسطنبول" تبيع مثل هذه الجوازات بمبلغ 600 دولار فقط. أردف المهرب قائلاً "راح أختم إياه بختم مغادرة تركي نظامي".

"عمّار" يجب عليه أن يجد طريقة يذهب بها عبر العبّارة إلى جزيرة "رودوس". سأل "عمّار" الرجل "وبركي ما مشي الحال". فأجابه "إزا ما مشي الحال بتدفع فوق المبلغ 2500 يورو وببعتلك على أفريقيا!". وافق "عمّار" على العرض

وأعطاه المال والصورة الشخصية التي يريدها. بعدها اختفى المهرّب الكردي في حارات "إسطنبول" الضيقة، ودخل إلى أحد مخازن المباني التي تتم فيها عمليات التزوير المعقّدة، تلك التي تستدعي فصل الأختام والأحبار والأشماع عن الورق الأصلي بدقة ومهارة. ما هي إلا ساعات قليلة حتى عاد المهرّب ومعه جواز السفر. من الآن فصاعداً سوف يدعى "عمّار جالاسو كاسيميرو".

رجع مسافراً على عجل إلى "مرمرة"؛ حيث يوجد هناك عبّارة تنقل المسافرين السيّاح إلى اليونان عبر طريق بحري سريع. في عودته تلك، بحث "عمّار" عن فندق جديد ينزل فيه لليلة واحدة آملاً ألا يتعثّر حظّه بالسفر من هنا، خاصةً أن لديه اسماً آخر هذه المرّة. في صباح اليوم التالي وقف في طابور الانتظار أمام نافذةٍ لتفتيش أوراق المسافرين بصحبة مجموعة من السيّاح بلغوا الـ400 سائح، وبدأ مكانه يقترب شيئاً فشيئاً من الفتحة. وضع جوازه كالعادة تحت الفتحة الزّجاجية، ثم أخذته الموظفة الجالسة ورائها. نظرت الموظّفة على جوازه بتمعّن واضح ثم حدث شيء ليس بجيّد. لقد قام المزوّر بوضع تاريخ ميلاد 1987 بدلاً من تاريخ ميلاده الذي يوافق 1976 بطريقة لا تخطئها عين؛ إذ يمكن ملاحظة الرقم 6 والرقم 8 فوق بعضهما. فجأة طلبت منه الوقوف جانباً ونادت على مترجم باللغة العربية.

جاء الرّجل وقام بسؤاله من أين جاء؟ في البداية حاول "عمّار" النفي بشكل مرتبك، ثم استسلم بتواضع وقال الحقيقة. أخرجوه بعيداً عن المكان الذي كان يقف فيه المسافرون المغادرون والدّهشة ظاهرةٌ على وجوه بعضهم.

قام الأتراك بأخذ صور له بعد أن أخذوا بصمات أصابعه، كانوا لطفاء معه، متفهمين لموقفه كباقي السوريين، ثم أطلقوا سراحه في عصر نفس اليوم. 15 ساعة قضاها "عمّار" في الأتوبيس الذاهب إلى "إسطنبول"، ثم نام متعباً على سريره في ذلك الفندق الذي ينزل فيه دائماً وأبداً.

أخذ التليفون بيده، طلب رقم المهرّب "أبو جينار" وسأله بشيء أقرب إلى

اليأس منه إلى الغضب "شو قصدك بالسفر على إفريقيا يا #$&^@؟"

***

كان الشارع الذي اتّخذه "علاء" و"حسّان" مقراً لهما في مدينة "ميلانو" كئيباً ويؤدي إلى طريق مسدود، لم يكونا ليقدرا على الخروج منه، لا ليلاً ولا نهاراً. قمت بركن سيارتي الـ"بي إم دبليو" الحديثة التي استأجرتها من أجل هذه المهمة، مع شعورٍ بعدم الراحة يتملكني. كان الوقت يشير إلى بعد منتصف الليل بقليل. المقهى الوحيد الموجود كان ما زال مفتوحاً، يقف على بابه بعض الشباب السّكارى، كانوا ينظرون هنا وهناك وكأنهم ينتظرون أحداً مثلنا.

"هادا مكان مو منيح يا شباب" .. قالها "رفيق" الذي يبلغ من العمر 26 سنة، وهو أخو "علاء" و"حسّان" الذي رافقنا إلى هنا. لقد كان أشجع أفراد العائلة، كان الأول منهم الذي قرر أن يعبر البحر، جاء منذ سنة عبر قوارب اللجوء إلى إيطاليا ثم وجد طريقه إلى السويد. يعيش هناك الآن بوضعية لاجئ مُعترَفٍ بها، ويستطيع بناءً على ذلك التجوال في أوروبا. عندما اتصل به أخوه "حسّان" من "صقلية" جاء مباشرة إلى مدينة "ميلانو". "رفيق" مسؤول عن أن يصل أخواه إلى السويد بأمان وبدون مخاطرة.

مشينا بسرعة على طول الشارع، كان "علاء" قلقاً من أن يرانا أحد من الجيران، أو أن يتم سرقة السيارة الألمانية المثيرة هنا. ما هي إلا لحظات حتى دخلنا بيتاً وصعدنا درجاً داخلياً فيه. هذا البيت قام رجل مصري باستئجاره من أجل أن ينزل به أناس موجودون بطريقة غير شرعية مقابل مبلغ مالي كبير: 150 يورو لليلة الواحدة. لم يكن هناك أي داعي ليعرف عنّا أي شيء.

فتح "علاء" لنا الباب وأدخلنا بسرعة خلال ممرّين ضيّقين. كانت هذه المرة الأولى التي التقينا فيها بعد أن تم ترحلينا من مصر. وجدته وقد فقد من وزنه بعض الكيلوهات، كان يبدو مرهقاً جداً بعد تلك الأيام التي قضاها على القارب. حتى وجهه كان به ما يشبه التجاعيد، كان عصبياً أيضاً، كما تركته قبل ذلك.

أستطيع تفهّم موقفه تماماً. كل الهموم تقع على أكتاف "علاء"، بينما كان النوم يغالب أخاه الأصغر "حسّان".

بقينا هنا وقتاً قصيراً فقط، خطّطنا للسير في اليوم الثاني لاجتياز جبال الألب. أعطيته بدلة رجالية ذات لون أسود، كان صديقٌ لي قد أقرضني إياها. كان عليهم ألا يبدو منظرهم كلاجئين في رحلتنا المنتظرة غداً، على الأقل ليس من أول نظرة. عادةً يمكن تمييز الأشخاص الذين يريدون العبور بشكل غير قانوني بسهولة: إنها نظراتهم الخائفة.

قام البوليس في "صقلية" بإطلاق سراحهم بعد ليلة واحدة فقط قضوها في مخيّم يتم فيه احتجاز اللاجئين، أطلقوهم كغيرهم أيضاً، مع كل من جاء معهم عبر البحر. إيطاليا لا تعترف بقوانين اللجوء في أوروبا وتريد مقاطعتها. لا تريد تحمّل عبء هذا الطوفان البشري من الجنوب عبر البحر لوحدها.

كان "علاء" و"حسّان" حريصين على عدم إعطاء بصماتهم هنا في إيطاليا. إيطاليا بدورها لم تكن فعلاً تريدهم، كانت تريد بدلاً من ذلك أن تتركهم وشأنهم ليذهبوا أينما شاءوا. في القطار المتّجه من "صقلية" إلى "ميلانو" كانت الوجوه جميعها معروفة لـ"علاء". كان أغلبهم سوريين، يجلسون في العربات، يغلبهم النوم على حقائبهم المركونة جوار النوافذ. كل من سافر معهم على متن "البسّام" كانوا جالسين معهم هنا في هذا القطار أيضاً.



فقط كابتن السفينة وقائد المهرّبين وفريقه الذين رافقوهم لم يكونوا معهم هنا. لقد تم اعتقالهم في الميناء بعد أن قام اللاجئون بالإبلاغ عنهم للشرطة. ذلك القبطان كان شخصاً منزوع الضمير ولم يكن ليستحق إلا ذلك المصير.

السجن للمرّة الثانية

يوم غادرنا "ميلانو"، كان صباحاً ذا غيوم، كان يوماً به ازدحام مروري فظيع. جلس السوريون الثلاثة على المقعد الخلفي بثيابهم التي بدت غير مهندمة كحالهم وجلستهم تماماً. أما "رفيق" فقد تركناه في المدينة ولم يأتِ معنا. لقد حجز تذكرةً وسوف يسافر في مساء ذلك اليوم عائداً إلى السويد. في الكيلومترات الأولى من رحلتنا لم يَملّ "علاء" من الحديث عن رحلته البحرية في قوارب الموت تلك، بينما كان "حسّان" و"بشّار" يغرقان في نوم عميق. منذ أيام طويلة خاصمهما النوم، ولم يسعدا بساعات نوم كهذه منذ فترة طويلة.

قررنا اجتياز وادٍ قاسٍ متجهين نحو النمسا. لقد قررت بنفسي اختيار النمسا كهدف لنا، مفضلاً إياها عن غيرها من البلاد لأكثر من سبب. صحيحٌ بأن الطريق عبر سويسرا يظل أقصر من بقيّة الطرق، لكنّ الحراسة على الحدود عندها كانت مشدّدة بشكل أكبر. في الطريق، امتدت تلال من كروم العنب أمامنا، ثم بسرعةٍ دخلنا في انحدارات جبلية وغابات مظلمة، بالإضافة إلى طرق جانبية صخرية الملامح. رأينا أيضاً بعضاً من بقايا الثلوج على نهايات القمم وعلى بعض المنحدرات. كان "حسّان" يحدّق بشدة في هذه الطرق الوعرة الصعبة. لم يحدث أن شاهد هذا الشاب ذو العشرين عاماً مناظر أو مرتفعات كهذه.

بدأت لافتات الطريق تشير بعدٍّ تنازليٍّ إلى المسافة التي تفصلنا عن الحدود المنتظرة، 240 كيلومتر، 210 كيلومتر، 50 كيلومتر، 22 كيلومتر، 9 كيلومتر، وهكذا حتى اختفت اللافتات جميعها. لقد وجدنا أنفسنا في قلب الحدود من دون حتى أن نلاحظ ذلك. لم تكن هناك أية علامة أو إشارة تجعلنا نعرف بأننا غادرنا إيطاليا وأصبحنا في جمهورية النمسا.

احتفلنا ولامست أيدينا بعضها البعض مع ابتسامات فرحة بانتصارنا اللحظي. سأل "علاء" مندهشاً "هلق هي هية الحدود؟!". لقد بدأت لافتات الطريق تظهر لنا بلون جديد، نحن في النّمسا فعلاً. عدنا وصفقنا بأيدينا فرحين، وانطلقت

السيارة بنا مسرعة عبر الوادي الرهيب نحو مدينة "إينسبورج". بعد قليل ظهرت لدينا نقطة أخرى من أجل دفع رسوم المرور: (10.5) يورو. فجأةً لاحظنا سيارة شرطة بدأت تمشي ورائنا، كانت السيارة تابعة لشرطة الولاية التي تنتمي إليها مدينة "إينسبورج". وقف ضابط الشرطة أمام النافذة وقال لنا بحزم واضح: "الأوراق لو سمحتم!

لقد تم اعتقالي للمرّة الثانية خلال شهر واحد. فتشوا في السيارة الـ"بي إم دبليو"، ثم أخذوا تليفوني المحمول. "لدينا هنا مهرّب بشر"، قالها الضابط على اللاسلكي مخاطباً المركز الرئيسي للشرطة. لقد نظروا إليّ كمجرم لأنني كنت أنا من أقود السيارة، قام بعدها موظفان بزيّ مدني وأخذاني معهما. مددت يدي إليهما في محاولة لمصافحتهما إلا أنهما لم يردا عليّ السلام. قال لي أحدهما "أنا من يحدد فيما إذا كنت أريد أن أمدّ يدي للمصافحة أم لا". قال الآخر "أنت الآن في حفرة عميقة من الخراء والعار". أخذاني معهما إلى مركز الشرطة في مدينة "إينسبورج" ناظرين إليّ كشخص بلا قيمة وبلا أخلاق. هناك أخذوا مني حذائي والحزام الذي يشدّ بنطلوني وتركوني وحيداً في غرفة الاحتجاز. بالنسبة لهم -كما أفهموني ذلك جيداً - أصحبت الآن شخصاً مجرماً يشبه أولئك الأوباش من القتلة والمتاجرين بالبشر.

لقد كنّا نعلم بأن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث. في القانون النمساوي هناك الفقرة رقم 114 التي تقول التالي "جنحة تهريب البشر قد تصل عقوبتها إلى خمس سنوات من السجن عند اتخاذها مهنة، أو عندما يتم إدخال "عدد كبير من الغرباء" إلى البلاد". لكنّني كنت أعلم بأن عقوبةً كهذه لن تمسني؛ لأن أياً من الشرطين لا ينطبق على حالتي هذه. ولكنني كنت رغم ذلك قلقاً للغاية، لأنني لم أكن أعلم كم سيستغرق هذا الوقت من الاشتباه، حاوطتني الشكوك حول المدة الزمنية التي سأقضيها هنا في صحبة الشرطة النمساوية حتى يصدّقوا الرواية الحقيقية.

بعد العصر، أخذوني إلى غرفة احتجاز أخرى. وبعد أن وضعوني في حجرة

الاعتقال، تم نقلي إلى القسم الخاص بالإقامة رهن الاعتقال. لساعتين من الزمن كنت وحيداً في غرفة صغيرة لا يتجاوز طولها وعرضها أكثر من مترين، بلا نوافذ مع فتحة صغيرة أسفل الباب، كنت بين الحين والآخر أردّ من خلالها على أسئلتهم حولي. تم نقلي من هذه الغرفة إلى الزنزانة رقم (46). أعطوني غطاءً للسرير وسألوني إذا كنت بحاجة إلى طعام للعشاء. قطعتان من الخبز وبيضة، كان ذلك هو العشاء الموعود.

خطرت لي الفكرة بأنني أنا أيضاً بحاجة - ربما الآن - إلى حبوب المهدّئات تلك التي كان يأخذها "عمّار" من وقت لآخر.

***

الآن يحمل "عمّار" اسم شخص فرنسي يدعى "كاستير". جواز السفر الفرنسي الذي سلّمه إياه المهرب "أبو جينار" بيديه يبدو فعلاً أفضل من السابق. يفضّل معظم المهرّبين الأوراق والجوازات الفرنسية والإيطالية لأنها أقل تعقيداً بالنسبة لهم، ولا يمكن كشفها بسهولة مثل الجوازات البريطانية أو الألمانية. يشرح "أبو جينار" لماذا: "لو كان عندك جواز سفر ألماني وشلت منو الصورة راح تظهر كل الورقة بلون أسود مباشرة".

اتجاه الطيران هذه المرة مختلف، وهو الأكثر ثمناً في عالم التهريب. إنه خيار الأشخاص الذين يملكون ميزة "VIP/مهم جدّاً". لقد دفع "عمّار" 5 آلاف يورو مقابل ذلك. فجأةً عاد "أبو جينار" وطلب من "عمّار" 3 آلاف يورو إضافية يجب دفعهم الآن. علمتُ بأن زوجته "رونالدا" قامت ببيع خاتم ألماس كانت تحتفظ به، وذلك من أجل توفير المبلغ له، كان خاتم زواجهما، باعته بـ2000 يورو ثم بعثت له المبلغ إلى تركيا.

في اليوم التالي، كان يجب على "عمّار" أن يركب طائرة تابعة للخطوط التركية باتجاه "تنزانيا" في إفريقيا. بعد ذلك عليه أن يركب الأتوبيس نحو "زامبيا"، ومن هناك سوف يسافر إلى "فرانكفورت" في ألمانيا. هكذا كانت الرحلة

والخطّة.

لكنّ "ربيع" حذّره عند الوداع "لا تقبل يا عمّار"، صارحه صديقه بشكوكه ومخاوفه آملاً أن يغيّر رأيه. "إنت ما بتعرف شو عم يستناك هنيك". لكنّ "عمّار" كان مصمّماً على رغبته في الذهاب. كان يريد أن يضع نهاية لكل مشواره المرهق هذا بأية وسيلة كانت. كان شيئاً غريباً أن يسافر مسافة 7 آلاف كيلومتر باتجاه الجنوب كي يصل إلى الشمال.

عبر جبال الألب

أخبرني "علاء" و"حسّان" فيما بعد بأن النمساويين قد استجوبوهم في "إينسبورج" بشكلٍ منفصل كلٌ بمفرده. لقد أحضروا لهما مترجماً مصرياً. كان المترجم يحاول أن يستدرج "حسّان" لأنه الأكثر خوفاً وجبناً بينهما، وذلك من أجل أن يعترف له بما يريد. "قول الحقيقة وماتكدبش" كان يرددها على مسامع "حسّان". "دفعت كام للمهرب ده عشان يعمل كده؟". كان الاثنان يحاولان أن يقولا الحقيقة لا غير، وهي أنّهم فعلاً لم يقوما بدفع أي مبلغ من أجل هذا العبور.

كان المترجم يسأل "حسّان" عنّي وعن المعلومات التي يريدها "ليه عاوز تحميه!". لم يكتفِ المترجم بذلك، بل قام بعرض خدماته على الشبّان الثلاثة بأنه يستطيع توصيلهم من جبال الألب إلى ألمانيا لو أرادوا، فقط لو اعترفوا بأن المهرب - يقصدني طبعاً - قد قام بطلب مال من أجل ذلك. قال المترجم "إمبارح قلت نفس الكلام ده لعائلة سورية اعتقلنا أفرادها هنا". أمّا رجال الشرطة النمساوية فكانوا يجلسون بالقرب منهم جميعاً ويتابعون الحديث باللغة العربية من دون أن يعرفوا ماذا يجري فعلاً. من أين لهم أن يعرفوا هذه التهديدات ومحاولات التلفيق والكذب التي كان يغرقنا بها مترجمهم هذا!.

بعد ساعات، تم إعادة اللاجئين الثلاثة عبر سيارة الشرطة إلى النقطة التي اعتقلوهم فيها على الحدود بعد أن تم تغريمهم بمبلغ 300 يورو كعقوبة على عبورهم الحدود بصورة غير شرعية. قام النمساويون بأخذ بصماتهم، وأخبروهم بأن هذا الإجراء خاص بالنمسا فقط ولن يتم إرسال هذه البيانات إلى المركز الأوروبي الخاص بقاعدة البيانات أو المعلومات والمعروف باختصار "يوروداك" (EURODAC)، والذي يتم فيه تخزين كل بيانات طالبي اللجوء في أوروبا.

حتى النمسا لا تريد لاجئين على أراضيها. أما المعلومات المأخوذة من اللاجئين

فيتم الاحتفاظ بها في مركز بيانات خاص بالشرطة من أجل تتبع أي جنحة أو عمل يختص بالإجرام بعد ذلك. في نقطة الحدود تم تسليمهم إلى السلطات الإيطالية حيث عرض عليهم الموظفون هناك خيارين اثنين:

الخيار الأول هو أن يركبوا قطاراً يتجه نحو ألمانيا. عرضوا عليهم حتى المساعدة في اختيار موعد القطار المناسب لهم والذي يذهب مباشرة إلى ألمانيا، والذي لا يوجد فيه أي تفتيش على الوثائق الشخصية لأن توقيت سيره يكون مع تبديل ورديات العمل. قام الموظف بكتابة كل ما يحتاجونه على ورقة صغيرة وسلّمها إلى "علاء" باليد بشكل ودّي مشجّع.

الخيار الثاني هو أن يركبوا القطار عائدين نحو مدينة "ميلانو".

لقد قرروا الذهاب إلى "ميلانو" لأنهم لم يكونوا يريدون أن يسلكوا طريق الجبال مرة أخرى. اتصلوا بـ"رفيق" الذي قام بإلغاء سفره إلى السويد، وجلس ينتظرهم في محطّة القطارات الرّئيسية وبذهنه مخطّط آخر للتهريب.

في المساء، قام المحققون النمساويون بإطلاق سراحي بعد عدم إيجادهم أي سبب قانوني لاستمرار الاعتقال. لم أكن فعلاً "أتخذ تهريب البشر كمهنة" كما هو التوصيف في نص القانون. حصلت منهم مجدداً على حزام البنطلون الخاص بي، وعلى حذائي وتليفوني المحمول. لقد قاموا بذلك لأن عملهم يتطلّب ذلك، حسبما شرحوا لي الأمر. ما يقومون به لا يشكرهم عليه أحد، وهم فعلاً لا يُحسَدون عليه، كل يوم يواجهون مشكلة تهريب البشر من اللاجئين عبر هذه الحدود، ما إن يأتي أحد ويمنعونه من العبور كما حدث مع الفتية السوريين، حتى يأتيهم آخرون بعد ساعات قليلة فقط. مهمتهم تبدو مستحيلة وصعبة كما أخبروني بعد ذلك.

طلبوا مني بعد ذلك أن أوقّع على وثيقة أصرّح فيها بأنني تلقيت - في زنزانة الاعتقال - طعاماً وشراباً. بعد ذلك تركوني أذهب. جلست أنا والمصور الفوتوغرافي في السيارة وحدنا، وعدنا بائسين إلى ألمانيا. كان المقعد الخلفي

خالياً من أصوات اللاجئين السوريين، هذا يدعو للإحباط فعلاً.

في ألمانيا وخلال اليومين التاليين، جلست على طاولتي الشخصية للكتابة، بينما كان "علاء" و"حسّان" و"بشّار" يقضون وقتاً مثيراً للدّهشة. لقد قاموا بقطع الحدود الفرنسية عبر قطار متجه من مدينة "نيزا" في إيطاليا قاصداً مدينة "ساربروكن" الألمانية. لكن قبل ذلك، بينما هم في إيطاليا وعلى مسافة قليلة من الحدود الفرنسية، قاموا بالنزول من القطار بعد أن خافوا من أن يكشف أمرهم موظفو مراقبة التذاكر أو شرطة الحدود داخل القطارات، وقاموا بمتابعة وإكمال المسافة المتبقية سيراً على الأقدام.

عند نقطة الحدود، شاهدوا سيارة شرطة فرنسية متوقفة على ركنٍ من الشارع، ويبدو أن الشرطة قد شاهدتهم أيضاً ولكنّهم لم يقوموا باعتراضهم وتركوهم يمرون. كان "رفيق" يتبعهم بـ تاكسي كي لا يشكّ أحد ما بأنه مهرب للبشر مما قد يعرّضه للاعتقال حتماً. إلا إنه في القطار المتّجه نحو ألمانيا قام بالصعود معهم وجلس في مقعد بعيد نوعا ما عنهم، لنفس السّبب أيضا. في مدينة "ساربروكن" قطعوا تذاكر قطار من أجل السفر مجددا نحو مدينة "كييل" في الشمال. في محطة القطارات الرئيسية هناك لم يكن من الممكن الحصول على تلك التذاكر إلا من مكتب السّفر الخاص بـ"الدويتشة بان" أو مكتب حجوزات القطارات الألمانية، هنا بالضبط يمكن أن يحدث اعتقال الغرباء في أية لحظة.

نام "حسّان" و"بشّار" خلال رحلتهم في القطار نحو المدن الألمانية، إلا "علاء" فقد خاصمه النّوم ولم تفارقه اليقظة. لقد مرَّ وشاهد بأم عينيه محطّات القطار في مدن مثل "فرانكفورت" و"كاسل" و"هانوفر". في "هامبورج" قاموا بتبديل القطارات وركبوا ذلك القطار الذاهب إلى مدينة "كييل". كانت الساعة تشير إلى الثانية ليلا عندما وصلوا إلى هناك. لم يكن هناك أحد في المحطّة، لم يكن فيها إلا بعض السكارى المتسكّعين وبعض رجال الشرطة. قام الثلاثة بتوزيع أنفسهم حتى لا يظهروا كمجموعة غريبة من الأشخاص، "حسّان" اختبأ في التواليت العمومي لساعتين متواصلتين. في خلال ذلك حاول "علاء" التفاهم مع ماكينة

قطع التذاكر التي بدت له -باللغة الألمانية المعقّدة- كصندوق عجيب يدعو للحيرة، لكنّه لم ينجح. عند الرابعة فجرا استطاعوا ركوب أتوبيس نحو مدينة "فلينسبرج" الحدودية. "ما تاخدوش القطار اللي يروح على الدانمارك يا إخوتي، هناك في كونترول دايما" نصحهم بذلك أحد الشباب المغاربة حين رآهم في المحطّة حائرين. قرروا أن يذهبوا بتاكسي إلى أقرب قرية عند الحدود الألمانية الدانماركية. قام "علاء" بالتوجه إلى رصيف تركن فيه سيارات التاكسي وتحدث إلى سائق منهم. كان السائق يعلم بأن وضعهم يسمح له ببعض المساومة بالسعر مقابل القيام بذلك. طلب منهم 200 يورو مقابل إيصالهم إلى هناك عبر طريق قصير. عندما يكون المرء في أوروبا بلا أوراق تصبح الأمور أكثر تكلفة. هكذا علّمت التجربة "علاء". سألهم سائق التاكسي -الذي يبدو أنه تركي الأصل- "هل لديكم أوراق رسمية؟". فأجابه "علاء" على الفور "لا". بعد مفاوضة سريعة أعطاه 150 يورو في النهاية. قبل الوصول بقليل قام "علاء" بسؤال السائق فيما إذا كان يستطيع إيصالهم إلى الدانمارك مباشرة. لم يكن سهلاً عليه المخاطرة بهذا السؤال بهذه الدرجة من الوضوح.

في البداية تردد السائق، كان قلقاً ومحتاراً. هل يستحق الأمر المجازفة بإمكانية السجن في مقابل قليل من القروش؟ يعرف أكثر من غيره بأن هناك العشرات من سائقي التاكسي الذين تم الرمي بهم في السجون في الدانمارك لأنهم ساعدوا لاجئين على العبور عبر الحدود. بمجرد أن يطالبوا بمقابل مادي ما للقيام بهذه المهمة سوف يُنظر إليهم قانونياً على أنهم "يتخذون التهريب مهنة لهم" وهذه جنحة واضحة ومكلفة. في المقابل يستطيع هذا الرجل، في ألمانيا مثلاً، أن يأخذ هؤلاء الثلاثة إلى الشرطة أو إلى مركز لاستقبال اللاجئين في البلاد؛ حيث يمكنهم تقديم طلبات لجوء رسمية هناك. لكن هذا الحل سوف يباعد بين الأخوة، واحد هنا والآخر هناك في السويد.

هنا طلب السائق مبلغاً إضافياً، يريد 250 يورو مقابل توصيلهم كما يريدون إلى الدانمارك. ما يعني 400 يورو من أجل عبور أمتار قليلة! تمت الموافقة مباشرةً

وركبوا معه السيارة، أوقف جهاز تحديد المكان ال"جي بي إس" وقطع بهم طرقاً جانبيـة، صـاروا الآن لا يبتعـدون سـوى مسـافة 2 كـيلو متـر عـن الحـدود الدانماركية، من مدينة "بادبورج" تحديداً. كان "علاء" يحاول بحذر أن يسأل السائق "هل نحن في الدانمارك الآن؟"، لأنه كان يخشى أن يغشهم ويأخذهم إلـى مكـان مـا علـى الأراضـي الألمانيـة ولـيس فـي الـدانمارك. "أنـت الآن فـي الدانمارك يا سيدي" قالها له السائق بشيء من الجدّية. عند الساعة السادسة صباحاً كان الثلاثة يقفون في محطّة مدينة "بادبورج" الرئيسية وينتظرون القطار الذي سيأخذهم باتجاه السويد.

لكن هنا أيضاً ظهرت لهم مشكلة جديدة.

أظهرت ماكينة السحب النقدي بأن البطاقة مسبقة الدفع الخاصة بـ"علاء" ليس بها رصيد مالي يكفي لدفع الثمن. لقد فهم "علاء" الأمر لكنه لم يكن يعرف ما يجب عليه فعله من أجل أن يدفع المبلغ نقداً. وهكذا صعدوا إلى القطار بلا تذاكر. كان "علاء" يعتقد بأن هذا الخطأ هو أغبى ما فعلوه ويمكن أن يوقع بهم في أيدي الشرطة. لذلك حاول أن يجرب الحديث مع الموظف المسؤول عن التحقق من بطاقات الركاب في القطار بشيء من الهدوء، وسأله عن التذاكر. ظهر على الموظف أنه مشغول وطلب منه أن يذهب الآن وسيأتي إليه في وقت لاحق.

لم يبقَ من هذه الرحلة الطويلة التي استغرقت شهرين من الزمن المرير سوى مسافة 2 كيلومتر. إنها رحلة العمر، رحلة الحياة أو الموت. لقد تعرضوا لشتى المضايقات، للاعتقال والخطف والسجن، شاهدوا خلالها الموت بأم أعينهم. جلس الثلاثة على أرض القطار الذي كان مليئاً بالركاب والمسافرين والموظفين الـذين يتنـقّلون كـل يـوم ذاهبـين إلـى أعمالهم في العاصمة "كوبنهاجن". قام "حسّان" و"بشّار" باختيار أماكنهما بشكلٍ متباعدٍ عن بعضهما تجنباً للشبهة.

بجانب "علاء"، كان يجلس شاب صومالي ظهر وكأنه يريد الدردشة مع "علاء".

بدأ يطرح عليه أسئلة عامة من نوعية كيف حالك، ومن أين أنت؟، لم يرغب "علاء" بالإجابة بشكل واضح، لأنه كان يعلم بأن عليه التزام الحذر طالما لم يصلوا بعد إلى هدفهم في السويد. فقال له بأنه يوناني. فجأةً وقف موظف القطارات أمامهم، فالشاب الصومالي لم يكن معه تذكرة. بدأ الاثنان بالشجار، الشاب والموظف. لقد تم ضبطه بعدم امتلاكه تذكرة صالحة للسفر بالقطار. سأل الموظف ذلك الشاب أكثر من مرّة "أين بطاقتك أو جواز سفرك؟". كان الصومالي يحاول عدم الإجابة بحجة عدم فهمه لما يريده الموظف: جواز سفر!

في هذه اللحظة تقدم "حسّان" نحو "علاء" حاملاً معه فناجين قهوة. قام "علاء" بغمزه طالباً منه بإشارة من أصابعه أن يكمل طريقه وألا يقف هنا. فهمه "حسّان" مباشرةً وتابع سيره مسرعاً إلى آخر القطار. اعتقد "حسّان" بشكل أكيد أن "علاء" قد تم اعتقاله. خطط للنزول من القطار في المحطّة القادمة كما كان متفقاً بينهم.

لم يكن "حسّان" يملك تليفوناً محمولاً وكانت لديه كمية قليلة من المال. هذا الموقف يمكن أن يفصل الأخوين عن بعضهما لأيام أو أسابيع وربما لشهور أيضاً.

الآن يقف الموظف أمام "علاء" مباشرةً، تعرف عليه، بأنه الذي كان يريد أن يتكلم معه في بداية الرحلة ويريد شراء تذاكر منه. سأله الموظف "هل تريد وصلاً بالثمن؟". هنا أشار "علاء" بالموافقة وقام بدفع مبلغ 180 يورو من أجل ثلاثة تذاكر. لكنّ الموظف أعطاه تذكرة واحدة فقط. يبدو بأن الموظف قد عرف بأنهم في البلاد بصورة غير شرعية، ولذلك قام بنهب مبلغ 120 يورو لنفسه. تماماً كما فعل سائق التاكسي في ألمانيا، قام هو الآخر باستغلال وضع هؤلاء الفتية المعذّبين من اللاجئين. لقد نجح هذا الموظف الدانماركي في لعبته هذه وقال لهم "أوكيه" مشيراً إلى أن الوضع تحت السيطرة.

في اليوم الموافق 29 من شهر مايو، وصل "علاء" و"حسّان" و"بشّار" إلى مدينة

"مالمو" السويدية أخيراً، عند الساعة العاشرة والنصف صباحاً.

إلياس راني كاستير

في التاسع عشر من شهر يونيو، وصل "عمّار إلياس راني كاستير" إلى العاصمة التنزانية "دار السلام"، عند الساعة الثالثة صباحاً بالتمام.

كما هي العادة، ظهر عليه القلق والارتباك، هذا ليس غريباً، فذلك نتيجة كل ما تراكم عبر الشهور الثلاثة الماضية. كان يعلم جيداً بأن هذه المحاولة قد تكون الأخيرة له، فعائلته كانت على وشك الإفلاس بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. لم يبقَ إلا السيارة التي تركها لزوجته كي تتصرف بها عند الحاجة، لقد باعوا كل ما يملكون وصرفوا كل مدّخراتهم. في الطريق نحو مطار "تنزانيا" وضع سماعات الموسيقى على أذنيه كي لا يضطر إلى التحدّث بالفرنسية. كان يسمع موسيقى صاخبة ممزوجة بأوركيسترا آلات كهربائية عالية.

بعد ساعات من الطيران، توجّه إلى حمام الطائرة وقام بتمزيق بطاقة البوردينج مع التذكرة التي كانت لا تزال تحمل اسمه الجديد. للمرة الثامنة قام جيداً بحفظ بعض المعلومات: اسمه ومكان ولادته وتاريخ إصدار جواز السفر الجديد. لم يكن ذلك سهلاً عليه؛ إذ تداخلت المعلومات المتعلقة بجواز السفر الإيطالي في المرة الماضية مع هذه المعلومات الجديدة في ذهنه بشكل كبير.

قبل الهبوط بحوالي ساعة، قام بأخذ بعض الحبوب من مضادّ الخوف "زاناكس" كي يريح أعصابه قليلاً. بدأ العالم يبدو بالنسبة إليه باهتاً كما لم يكن قبل ذلك. بدأت الأصوات تصبح أقل إزعاجاً وأكثر هدوءً. لم يعد يبدو هذا العالم على تلك الدرجة من الخطورة بعد تناول تلك الحبوب الساحرة. أسند ظهره إلى كرسي الطائرة واستلقى بهدوء ووداعة.

بدأت مدينة "دار السلام" تظهر شيئًا فشيئًا من نوافذ الطائرة تحته، كانت كبحر كبير من الأنوار المشعّة المتناثرة بلا ضابط وبلا قواعد. أنوار المدينة العديدة هذه لم تكن تنتظم في إطار أو تنظيم ما. كانت صغيرةً جداً، منتشرةً بأحجامها

التي تشبه رؤوس الإبر المضيئة. بدأت الطائرة بالنزول إلى المدينة التي تضم 3 ملايين ساكن، لم يكن "عمّار" يعرف أي أحد من هؤلاء.

سألته موظفة التفتيش في المطار وهي تنظر إليه "هل هذا جواز سفرك؟".

حاول "عمّار" أن يبقى هادئاً وأن يحافظ على شجاعته وبرودة أعصابه، رغم أن كل شيء بدا وكأنه في طريقه إلى الانهيار. عندما قاموا بتمرير جواز السفر على سطح جهاز الكشف الكهربائي كان يعطي ضوءً أحمر. قالت له الموظفة بلطف "لا أعرف لماذا لا يريد أن يقبل جوازك يا سيدي!". قال لها "ولا أنا أعرف حقاً".

عند ذلك قامت الموظفة بالنداء على رئيس مكتب تفتيش الجوازات في المطار، حاولت مرة أخرى تمرير الجواز على أجهزة أخرى، لكنّ في كل مرة كانت تشير الأجهزة إلى لون أحمر بدلاً من الأخضر. أخذت الموظفة الجواز، وطلبت من "عمّار" الانتظار في مكتب مجاور. هنا جاء موظف آخر وسأله فيما إذا كان معه جواز سفر آخر، أجابه "عمّار" بالنفي متبوعاً بجملة واضحة "لماذا عليّ أن أحمل جوازين؟" لقد كان على قناعة بأنّ الرحلة قد انتهت هنا وسوف يقومون بترحيله بالتأكيد. لكنّه لم يُظهر أثناء ذلك أي تأثر ولا أي ارتباك. يبدو بأن مضادات الخوف والقلق قد فعلت فعلها. إنه "زاناكس" الساحر.

سأله الموظف "أين هي بطاقة البوردينج سيدي؟". كان جواب "عمّار": "لقد رميتها في الطائرة". سأله الموظف فجأةً وهو ينظر إلى وجهه "Ça va?". فردّ عليه "عمّار" بالقول "Ça va bien". ثم بادره بعد ذلك بسؤال عابر"Parlez Francais?". كان ذلك كل ما يعرفه "عمّار" من اللغة الفرنسية، لكنه كان كافٍ جداً حتى يترك انطباعاً غير متشكك عند موظف التفتيش.

تم إرجاع جواز السّفر إليه بعد وقت قصير، قاموا بتمريره مجدّداً على الجهاز، لم يكن يظهر إلا اللون الأحمر مرة أخرى. هنا قامت الموظفة بأخذ الجواز بحركة عصبية، وألقت باللوم على الجهاز ولم توجّه أيّة كلمة إلى "عمّار" ولم

توجه إليه أية ملاحظة. لقد تركته يمر ببساطة.

لقد عاش "عمّار" في طريقة نحو أوروبا لحظات عصيبة كثيرة، كان الحظ لا يحالفه فيها ولو قليلاً، وكانت كافية لنشر اليأس والخيبة وتغيير المسارات وإعادة كل شيء إلى الوراء. لكن هذه المرة كانت مختلفة. للمرة الأولى في رحلته الطويلة هذه يبتسم له الحظ بالفعل.

لقد كان محتاراً جداً ومندهشاً لكيفية مرور الأزمة بسلاسة لم يكن يفكر بها أبداً. بعد قليل دخل إلى صالة القادمين في بهو المطار، وبدأ يبحث عن شخص يلبس تي - شيرت بلون أحمر مكتوباً عليه رقم (166). في "إسطنبول" طُلب منه أن يقوم بالتواصل مع هذا الشخص الذي سوف ينتظره هنا. إنه "عليّ"، الجسر الذي سوف يأخذه إلى ألمانيا. لكن قبل ذلك يجب عليه أن يأخذه إلى مكان آخر في اتجاه مختلف تماماً. كان "عليّ" يقوم كل أسبوعين بنقل اثنين من اللاجئين من "تنزانيا" نحو "زامبيا"، البلد المجاور.

ابتداءً من هذه اللحظة وصاعداً، سوف يكون هذا الفتى صاحب التي شيرت الأحمر مرافقه في هذه الرحلة. قام بمرافقته إلى فندق قضى فيه بضع ساعات من النوم، ثم قاما معاً بالذهاب إلى محطّة الأتوبيسات؛ حيث اشترى "عليّ" تذاكر خاصة بالرحلات بين تنزانيا والدول المجاورة لها. هذه الأتوبيسات تمكّن الشخص من الذهاب من" دار السلام" باتجاه الحدود مع "زامبيا" مرتين يومياً.

كان "عليّ" لديه زبون آخر في هذه الرحلة. إنه "أبو سيف"، الكردي العراقي الذي يريد هو الآخر السفر بهذه الطريقة نحو بلجيكا. كان "أبو سيف" تاجراً تبدو النعمة ظاهرةً عليه. لم يتخيل "عمّار" لماذا يريد رجل كهذا أن يخوض رحلة كهذه. جلس "عمّار" بجانب "أبو سيف" في الأتوبيس. كان الرجل يحمل جواز سفر يوناني مزوّر، بالرغم من أنه لا يعرف كلمة واحدة من اللّغة اليونانية، حتى الكلمات القليلة بالإنجليزية كانت مكسّرة وغاية في الإحباط.

استمرت الرحلة بالأتوبيس حوالي 21 ساعة كاملة، سافروا فيها عبر غابات

السافانا الشهيرة التي كانت تنتشر على هضاب ضخمة وكبيرة. كان الأتوبيس يشق طريقه عبر محميات طبيعية خلابة، لقد شاهد "عمّار" بأم عينيه حيوانات مختلفة من بينها قردةٌ تظهر أمامهم على الطريق.

كان "أبو سيف" رجلاً بديناً جداً بحيث أنه عندما اضطر "عمّار" للجلوس معه على الكرسي، جلس بشكل محرج وضمَّ قدميه إلى بعضهما. لقد أوجعه حوضه ومقعدته بشكل واضح. هذه هي الليلة الرابعة على التوالي التي لا ينام فيها. حتى عند مركز مراقبة الحدود باتجاه "زامبيا" كان الجهاز يشير إلى اللون الأحمر عند تمرير جواز السفر عليه. للمرة الثانية يعتقد الموظفون بأن خطأً فنياً ما هو المسؤول عن ذلك. لم يكن لديهم أدنى شك بذلك.

لسوء حظ العراقي "أبو سيف"، فقد تم إيقافه على الحدود لأنه نطق بعنوان لا يمتّ بأية صلة إلى شيء يوناني. حزن "عمّار" عليه وغضب أيضاً من غبائه في عدم قدرته على تعلّم كلمة "أثينا" التي حاول أن يلفظها أمامه مراراً وتكراراً. كان "عمّار" مستعجلاً وقرر أن يركب تاكسي وينطلق في حال سبيله في الرّحلة وحيداً، لم يكن يريد أن يصيب حظّه أية مشكلة بسبب جهل هذا العراقي المنحوس. لكن رجال الحدود كانوا كرماء جداً، إذ أطلقوا سراح الرّجل بعد ساعتين من الاحتجاز.

"لوساكا" عاصمة "زامبيا"، مدينة إفريقية تشتهر بالسلام والهدوء. كانت بالنسبة له محطّة أخيرة على طريق الهروب الكبير الطويل هذا. كانت أصغر حجماً من "دار السلام"، وأكثر خضرة، تمتلئ بالحدائق والمباني التي ترجع إلى ستينيات القرن الماضي، والتي تلتفّ حول مركز المدينة بأناقة واضحة. لقد دخلت هذه المدينة قلب "عمّار" من اللحظة الأولى. كان يحب المدن النظيفة.

في فندق من الدرجة الثالثة، التقى الشاب "محمود"، شريك المهرب العراقي "أبو جينار". كان الاثنان يقومان بترتيب أعمالهما في البلدين بشكل متناسق. "محمود" عراقي كردي أيضاً، جاء إلى هنا في "زامبيا" منذ سنتين تقريباً.

كانت الخطة أن يركب "عمّار" في اليوم التالي طائرة مسافرة من "لوساكا" إلى ألمانيا. لقد قام "محمود" برشوة موظفي المطار في "لوساكا". بدأ "عمّار" و"محمود" يتبادلان الحديث في بهو الفندق، طلب "محمود" من "عمّار" جواز السفر، وعندما سأله عن السبب أجابه بأنه يريده من أجل تثبيت الحجز. لقد كان ذلك فخّاً جديداً.

في صباح اليوم التالي، لم يحصل "عمّار" على أية تذكرة للسفر. لم يكن هناك أي حجز ولا يحزنون. لقد طلب "محمود" منه مالاً لكي يعيد إليه جواز السفر، طلب 2500 يورو من أجل ذلك. وإذا رفض "عمّار" ذلك لن يحصل على أي شيء وسيتركه هنا وحيداً في هذه البلاد التي لا يعرف فيها أحداً. انفجر "عمّار" بالغضب وكادت أن تحدث مشاجرة عنيفة بينهما. كان يمكن أن يتعرض هنا للخطف من جديد.

دار الخلود الأولى

كعادته كل صباح، انحنى "حسّان" من شبّاك غرفته في مركز تجميع اللاجئين في مدينة "سيفلة" السويدية، وبدأ بإطعام طيور النورس. قال لي مكرراً كلامه عدة مرات "شوف ما أحلاهم، إنت ما عم بتشوف هالمنظر". كان يرمي بقطع الخبز في الهواء، بينما بدأت غيومٌ بيضاء صافية بالتجمّع في السماء. يمكن أيضاً رؤية مسارات الطائرات التي تبعث دخانها الأبيض عالياً في الزّرقة. كان الخبز يرتفع، ثم يتقطع، قبل أن يتساقط صغيراً جدّاً على أرض الفناء الداخلي للمبنى حيث يلعب بضعة أطفال من اللاجئين الصوماليين كرة القدم.

نورسٌ كبيرٌ قام بالتقاط قطعة كبيرة من الخبز المقذوف في الهواء وشدّها إلى نفسه، جاء آخر وهجم على كسرة الخبز بلا رحمة. خمسة، لا بل ستة من طيور النورس بدأت بالتجمّع والهياج في الهواء حتى سقطت كل قطع الخبز على الممر الإسفلتي الذي يقود "حسّان" و"علاء" إلى منزلهما الجديد هنا. استمرّت طيور النورس بالعراك مع بعضها في سبيل الخبز المتطاير. "شو هالروعة!" قالها "حسّان" مندهشاً. هذا المشهد يقوم بالاستمتاع به كل صباح تقريباً.



الأخوان "علاء" (على اليمين) و"حسّان" في مدينة "سيفلة" السويدية

هنا لم يعد على الأخوين أن يتخفّيا، لا خوفاً من الشرطة ولا من نظرات

الجيران الجدد المتشككة في الغرباء. لقد قدّما طلبات اللجوء، بعد أن أخذت السلطات بصماتهما. لقد تقبّلا إجراءات هذه البيروقراطية أخيرًا في سبيل هدفهما، هذه الإجراءات التي تجعل من لاجئين دخلوا البلاد بصورة غير شرعية مواطنين رسميين لهم حتى الحق في الاقتراع والتصويت. تماماً كما حدث مع أخيهما "رفيق" الذي يعيش في المدينة الصغيرة منذ سنة تقريبًا.

بقي "حسّان" في مخيم اللاجئين في مدينة "مالمو" لفترة قصيرة فقط، بعدها تم السّماح له بالمغادرة والانتقال إلى بيت جديد في الضاحية الخاصّة باللاجئين والتي تعرف باسم "Vintergarten" في مدينة "سيفلة". كان الحي الذي يسكن فيه الأخوان مميّزاً من خلال كتلتين ضخمتين من المباني بأدوارهما الأربعة ذات اللون الأحمر، تقفان مقابل بعضهما البعض في أطراف هذه المستوطنة. "كل شي صار ورا ضهرنا هلق" قالها "علاء" الذي تبدو عليه راحة نسبية بعد وقت طويل من التعب، إلا أنه لم يكن سعيداً على أي حال.

كانت الغابات تحيط بوطنهم الجديد، تمتدّ هنا على مئات من الكيلومترات غابات وبحر وأشجار كثيفة وطحالب، طبيعة لم يتم ترويضها بعد. لقد نشأ الأخوان في قلب مدينة حيّة كانت تعتبر لأوقاتٍ عديدةٍ إحدى المدن ذات الأهمية الفائقة في الشرق الأوسط. منذ أن حطّت أقدامهم هنا لم يقم "علاء" و"حسّان" بأية جولة في هذه الغابات الساحرة أمامهما. كان المكان الذي يدعى "Säffle" لا يعتبر سوى مكان مهجور في السويد، يضم 5 آلاف ساكن، لا يمكن رؤية أحدهم في الشارع إلا نادراً. كان "علاء" و"حسّان" يقضيان أوقاتهما بالمشي في حارات وشوارع يتيمة، وكأنهم يمشون في مدينة خالية أقيمت للتصوير السينمائي وليس للعيش.

اشترى "حسّان" لنفسه "تابليت" جديد، كان يمسك به طوال الوقت عندما يريد الخروج. أمّا "علاء" فكان تليفونه المحمول صديقه الذي لا يفارقه، من الأفضل أن يحتفظ به وألا يتركه في البيت، كان "علاء" يقول "هون مو الكل أشخاص مناح وصاحبين أمانة". في مخيم اللاجئين كان يتجنب أي تواصل مع أحد،

حتى مع الشاب العراقي الذي يتشارك معه الغرفة؛ إذ كان لا يتكلّم إلا للضرورة، مستلقياً على سريره متصفحاً الإنترنت. لم يكن "علاء" يريد أن يقوم بأيّ خطأ، أياً كان. كان يجهل القوانين في البداية. لم يرغب أن يتفوّه بشيء أو بكلمة يمكن أن تستخدم ضدّه لاحقاً، مع أنّه لم يكن يفهم فعلاً طبيعة هذا القلق، ولا ما هي الكلمات والمعلومات التي يمكن أن تؤذيه فعلاً كما كان يعتقد.

إلا أن "حسّان" كان على العكس منفتحاً، يتكلم مع أي شخص بسرعة، كان "علاء" يحسده على ذلك. حتى هذا الوقت كان "علاء" هو الشخص المبادر، الذي يعلم كيفية التصرف في المواقف وقيادة الآخرين، لم يكن يتساهل مع أحدٍ ولا يقلّد أحداً، بينما كان "حسّان" يظهر بأنه الشخص الضعيف الخائف المتذمّر الذي غالباً ما يستسلم بسرعة. في مدينة "سيفلة" تبدّلت الأحوال تماماً. فـ"حسّان" بدأ بالتعوّد على الأجواء هنا في السويد بصورة أفضل، كان يجد الشوارع ويحفظ الأمكنة بلا تعب. أمّا "علاء" فكان غالباً ما يجد نفسه تائهاً في هذه المدينة الصغيرة.

كان "علاء" يقول عن نفسه "أنا بعدني هلق بمرحلة الوضعية الدفاعية".

كان الأخوان يتمشيان كثيرًا في هذه المدينة التي تملك مركزاً تجارياً غريباً. هنا يوجد مكان صغير يحتوي على دار للبلدية وعلى محل لإعارة الكتب، قناة مائية تعود إلى القرن التاسع عشر فوقها قنطرة عليها سكة حديد لتسيير القطارات، وفيها أيضاً مكتب للسياحة والاستعلامات، رأيت فيه رجلاً وامرأة من ألمانيا واقفين يقلّبان في بروشورات دعائية.

كان المكان يلفّه هدوء عميق. يسأل "علاء" نفسه بحيرة وحزن "وين البشر يا زلمة؟". أخوه "رفيق" الذي كان يعلم عن السويد أشياء أكثر بحكم مجيئه مبكراً إلى هنا، كان يقول له دائماً "هيك بعيش السويديين هون، بروحوا بكير الصبح عالشغل، بعد هيك بيرجعوا بروحوا على المتاجر منشان يشتروا حاجياتهون من محلات "الليلدل" و"النيتو"، بعدين عالبيت منشان يكملوا يشوفوا تلفزيون.

اليوم التاني بيعملوا نفس الشي من أول وجديد. بس ولادهم ما بروحوا معاهم هالشغل طبعاً، الولاد هون بتروح على المدارس. كلو بنظام وترتيب، ما في مبادرات أو نشاطات تانية ولا أوقات للرفقة والأصدقاء". أشار "علاء" برأسه قائلاً "مضبوط والله، متل الماكينات!".

على ضفة القناة المائية، كان يتجمّع بعض السكارى من أبناء المدينة، يشربون كئوسهم من الزجاجات وينظرون غير مبالين إلى الأخوين السوريين. "No welcome" قالها أحدهم، ثم وجّه الآخر كلمات إلى "علاء" قال فيها "Go back to your home". لم يعطهم "علاء" أي انتباه، كان يتصرف وكأنه لم يسمع شيئاً. هذه هي المرة الأولى التي يقول فيها شخص له في السويد بأنهم غير مرحب بهم هنا. لقد جرحته هذه الكلمات وأثارت فيه التوتّر. قبل المجيء إلى هنا، كانت السويد بالنسبة له بلداً مجهولاً.

في بعض الأحياء المجاورة لمباني اللاجئين، يمكن رؤية منشورات عدائية تحض على كراهية اللاجئين تصدر على ما يبدو من حزب "Svebskarna"، أو "حزب السويد"، الحزب القومي اليميني المتطرّف، نازيو السويد. يتحدث هؤلاء عن التغريب الذي يحدثه اللاجئون في المجتمعات هنا، ويجاهرون بأن على المسيحية أن تفعل شيئاً وتقاوم الإسلام الذي يتمدد هنا. السويدي بحسب تعريفهم هو فقط الذي تثبته الجينات وتعطيه الحق بأن يكون سويدياً.

لقد استطاع أنصار اليمين المتطرف الذين يسمون أنفسهم "الديموقراطيون السويديون" الحصول على النسبة 5.7% في انتخابات سنة 2011 بحيث أمكنهم دخول البرلمان. ليس هذا فحسب، بل استطاعوا سنة 2014 أن يحصلوا على نسبة 9.7% في الانتخابات الأوروبية. استطلاعات الرأي الحالية تشير أيضاً إلى أنهم سيحصلون على نسبة 14% في حال جرت الانتخابات في هذا الوقت.

السويد، البلد صاحب التسعة ملايين نسمة يعاني هو الآخر من مشكلات

الهجرة واللجوء. فقط في الأسبوع الذي جاء فيه "علاء" و"حسّان"، وصل إلى هنا في الشمال 200 ألف شخص. سنة 2013 كان عدد المهاجرين الذين وصلوا إلى السويد يقارب الـ60 ألفاً، بينما وصل عدد هؤلاء سنة 2014 إلى 80 ألف شخص. لم يحدث أن أتى على هذا البلد عدد هائل من البشر في فترة قصيرة طوال تاريخها الحديث. مع الوقت بدأ المجتمع السويدي يواجه صعوبات كبيرة في عملية دمج المهاجرين الجدد. مع مرور الوقت أصبح هناك "جيتوهات" مملوؤة بالعرب والصوماليين من اللاجئين. كان عدد اللاجئين من العرب يزداد كل يوم، وتزداد معه أيضاً المشكلات والاعتداءات.

لم يعرف "علاء" و"حسّان" أي شيء من هذا كله، الآن فقط بدأت الصورة تتضح أمامهما شيئاً فشيئاً.

دار الخلود الثانية

في الثاني من شهر "يونيو"، كان "عمّار" يقف أمام موظف تفتيش الجوازات في مطار "كينيث جاوندا الدولي" في مدينة "لوساكا" في "زامبيا". في الجاكيت كان يوجد جواز السفر الأحمر باسم "راني كاستير". لقد كانت حالة الجواز سيئة نوعاً ما بسبب الأسابيع الماضية من التنقّل؛ بحيث بدأ الشمع ينحلّ عن ورقاته المميزة.

استطاع "عمّار" أن يتفاهم مع الرجل الذي استقبله في هذه المدينة، ثم كاد أن يخطفه لو لم يدفع له مبلغاً إضافياً من المال. أوضح له "عمّار" بطريقته الخاصة حجم المبالغ التي دفعها لشريكه "أبو جينار" في "إسطنبول" والتي وصلت إلى 8 آلاف يورو، والتي يبدو بأن الرّجل قد أخفاها عن شريكه.

قام "عمّار" بالاتصال بـ"أبو جينار" على التليفون، وأسمع "محمود" الجالس أمامه كل محتوى المكالمة. كان غاضباً جدّاً منه وعلا صوته بوضوح وهو يحدّثه. بعد ذلك اقتنع "محمود" -شريك المهرّب - بما قاله "عمّار"، وقام بإرجاع جواز السفر له، وحجز له تذكرة على الخطوط الزامبية كما كان متفقاً عليه. حصل "عمّار" مجدداً على حريته، وكان يستطيع أن يمضي في حال سبيله نحو الخطوة الكبرى.

لقد سمحوا له بالدخول بلا مشاكل وبسلاسة واضحة؛ حتى أنهم لم يمرّروا جواز السفر على الجهاز الكهربائي. لقد وفى "محمود" بوعده ورتّب الأمور مع الموظفين في المطار. لكن في "لوساكا" حصل على بطاقة بوردينج واحدة فقط؛ بحيث يستطيع السفر إلى العاصمة الناميبية "فيندهوك" حيث سيتم تبديل الطائرة هناك. هذا سيجعل الأمور أكثر تعقيداً. هنا خاف "عمّار" من أن يكون هناك تفتيش في ذلك المطار أيضاً.

لكنّ هذا لم يحصل. حتى أن موظفي تفتيش الجوازات في مطار "فيندهوك" لم

يقوموا بأي شيء يثير الخوف، أعطوه الجواز بيده ثم جعلوه يمشي. في هذه اللحظة شعر "عمّار" بأن الأمور تسير بطريقة جيدة تماماً. مشى في الممر الذي يأخذه من صالة المسافرين إلى الطائرة، كاد يصيبه الجنون وهو يضبط نفسه كي لا يركض من الفرحة. كان يتمتم "يا إلهي .. يا إلهي". لقد نجح أخيراً.

في نفس الليلة عند الساعة العاشرة مساءً، كنت أجلس مع بعض الأصدقاء في حديقة تابعة لمطعم في مدينة "توبنجين". فجأةً استقبلت رسالةSMS من تليفون يُظهر كود دولي غريب. لقد كانت الرسالة آتية من "ناميبيا" وتظهر فقط حرفين اثنين: OK. كانت هذه الإشارة هي التي اتفقنا عليها أنا و"عمّار" إذا سارت الأمور كما ينبغي، وقد حدث بالفعل ما اتفقنا عليه هناك في إفريقيا، عند آخر محطّة يجب عليه أن يسافر منها. لأسباب أمنية لم أكن أعلم أين هو الآن بالضبط وفي أي مكان، أو على أية خطوط سوف يسافر. كنت أعلم فقط بأنه في خلال عشر ساعات سوف يكون قد وصل إلى مدينة "فرانكفورت". لقد وعدت "عمّار" أن أقوم باستقباله في صالة الزوار في مطار "فرانكفورت".

قال لي في صباح اليوم التالي "أنا هنا، لقد وصلت"، وصل بوقت مبكر عن المعتاد. لقد وصلت الطائرة من "ناميبيا" في الموعد تماماً. في مطار "فرانكفورت" واجه "عمّار" الشرطة الألمانية الذين قاموا بالتفتيش في الجواز، لكنّهم لم يسألوه عن أي شيء آخر. قال لي لاحقاً "كانوا فقط يفتشون جوازات المسافرين الأفارقة".

كنت مازلت في القطار السريع ذاهباً إليه، طلبت منه أن ينتظرني في الصالة المخصصة للقادمين على أرض المطار. أكدّت له بأنني سأفعل ما أستطيع في حال كان هناك أية مشكلات مع الشرطة الألمانية الفيدرالية. أخذ فنجاناً من القهوة، ثم قام بعدها بإتلاف جواز السفر المزوّر الذي كان معه. في خلال ذلك طلبت من المحامية "نهلة عثمان" أن تدعم "عمّار" وتقف معه، كانت هي الأخرى في الطريق نحو المطار.

عندما وصلتُ إلى صالة القادمين رقم 2 رأيت "عمّار" واقفاً هناك، خلف آخر حاجز يمكن فيه تفتيش الجوازات من الشرطة. ناديت عليه ولوّحت له بيدي. كنت متأثراً جداً وعلى وشك البكاء. قلت بأن عليّ أن أضبط أعصابي أمامه. قلت له "الآن تستطيع أن تذهب، توجّه إلى الشرطة الآن".

لقد استطاع في هذه اللحظات أن يحصل على شيء كان مستحيلاً في الأشهر الماضية، اللجوء إلى أوروبا. لقد فعل كل شيء من أجل أن يحصل على ذلك.

إلـى لحظـة كتابـة هـذه السطور، كان "عمّار" يعيش في مركز خاص بتجميع اللاجئين في منطقة قريبة من مدينة "هيسين". هي قرية صغيرة تقع بين تلال هادئة ويسكنها حوالي 3 آلاف نسمة. الآن يحاول "عمّار" أن يحضر عائلته إلى هنا، إلى ألمانيا. لم يكن لديه أية فكرة عن أين سيسكن في المستقبل؟ وماذا سيفعل أو يعمل؟ ومن أين سوف يعيش؟. في رأسه تدور أسئلة كثيرة. هل سيبدأ بتجـارة السيارات؟، ربمـا. هـل سيفتتح محلاً لتجارة المفروشات من "بالي" كما كان يعمل في القاهرة؟ هل ستستطيع زوجته أن تتحمّل الغربة، وأن تترك أهلها وتبتعد عنهم كما هي حال أغلب أسر اللاجئين السوريين هنا؟ هل مازال هو نفسه الشخص الذي كان؟ هل مازالت زوجته هي هي كما عرفها؟. لقد كان في نهاية رحلة طويلة. إلا أنه كان أيضاً أمام مرحلة جديدة تماماً.

***

فـي هـذه الأوقـات، تم قبول طلبات اللجوء الخاصة بـ"علاء" و"حسّان". كان الأخوان يريدان بدء العمل مباشرةً، ولكنهما كانا يجهلان ما هو ذلك العمل. "علاء" يفكر في أن يبدأ عملاً يتعلق بتركيب وفرش السّجاد، أمّا "حسّان" فكان يريد أن يعمل طبّاخاً. كان يحسن الطبخ بشكلٍ جيدٍ جداً، حتى أخوه "علاء" كان يمدحه في ذلك، "علاء" الذي كان نادراً ما يتحدّث عنه بشيء إيجابي.

يريدان أيضاً تعلّم اللغة السويدية. لقد كانت بالنسبة لهما لغة معقدة وغريبة، لم تكن كلماتها تنزلق بسهولة على ألسنتهما وشفاهما. كان يجب عليهما أن يتأقلما

مع البرودة الشديدة، ومع أضواء النهارات الطويلة، ومع الشمس الحادة في الصيف ومع الشتاء الطويل الشاق. سوف تمضي أمورهما بشكل جيد يوماً ما، فقدرهما بأيديهما الآن. كما كان "علاء" يقول.

صحيح أنهما وصلا، لكن لهما أصحاب وأصدقاء كثر، هم الآن على الطريق يشقّون رحلتهم نحو الشمال، على متن القوارب في أعالي البحار، نحو هذا المكان، نحو الجنّة الموعودة، حيث دولة القانون والحريات، وإمكانية العمل لو ابتسم الحظ قليلاً. لكن رغم ذلك يبدو "علاء" حزيناً، مرهقاً تأخذه الحيرة. لا تمرّ عليه هنا في السويد لحظة واحدة لا يفكر فيها بالفردوس الحقيقي بالنسبة له: حارات دمشق العتيقة، حيث الكنوز المخبأة في البازارات.

بالنسبة إليه، لقد ضاع كل ذلك ولن يعود إليه أبداً.

خاتمة ورجاء

في أوروبا، لم نكن نرغب بالتدخّل هناك. لم نكن نريد أن نرتكب في ذلك أي خطأ. لقد تفرّجنا على الموت في سوريا. قمنا بإرسال الخيم المتينة التي يمكن أن تحمي من القصف والقذائف، لكننّا سمحنا لـ"الأسد" بأن يواصل القصف ورمي القذائف. ثلاثة أعوام مرّت كنّا فيها شهوداً على هذه المشاهد، وكيف يقوم النظام السوري بالتنكيل بشعبه بالمجازر، وكيف يقوم بتدمير البلد بطريقة ليس لها مثيل منذ تدمير "فيتنام".

لقد انتهت سوريا ولم يعد هناك وجود للدّولة. سوريا التي توجد الآن هي عبارة عن مناطق متفتّتة أصابها التفكك. لقد تفتت إلى دويلات صغيرة تحكمها حدود متحركة حسب تغيّر الأحوال على الأرض.

في البداية لم يكن الحال على هذه الدرجة من الفوضى. بصفتي صحفيّ مراسل لمجلة "دي تسايت" استطعت في السنوات الماضية زيارة هذا البلد مرّات عديدة. لقد رأيت بنفسي كيف كان الآلاف من الناس يتظاهرون كي يبعدوا عنهم الأذى من حكومة غارقة في الفساد. رأيت بنفسي كيف كانوا ينزلون إلى الشوارع كل مساء بشكل سِلْميّ ولشهور طويلة، لم يكونوا يحملون معهم إلا لافتاتهم، وكيف كانوا يتعرّضون كل مساء لأمطار من رصاص قوات النظام المسلّحة. لقد رأيت بأم عيني كيف لجأ هؤلاء المتظاهرون أنفسهم إلى السلاح، وكيف بدأوا بالرد على من يطلق عليهم النار. كنت شاهداً على كيفية تحوّل هذه الانتفاضة السلمية إلى حرب أهلية دموية. لقد كنت في سوريا عندما قام أوائل هؤلاء المنتفضين ضد النظام بتحرير المدن. ورأيت كيف كان النظام يتسبب في تصعيد الموقف وكيف بدأ باستخدام الطائرات المقاتلة، وسلاح الجو وصواريخ أرض - أرض لاحقاً، وكيف بدأ بتدمير العمران والمناطق الثائرة وجعلها أثراً بعد عين من الحطام.

عندما كان الناس يموتون، كانت أوروبا - وخاصة ألمانيا - مشغولة بسياستها

في التجاهل والانتظار وأخذ المسافات ممّا يجري هناك. لقد كان الساسة يتحججون بأننا لو تدخّلنا عسكرياً وقمنا بتوفير مناطق يتم فيها حظر الطّيران سوف يؤدي ذلك إلى زيادة الأوضاع سوءً.

كانت الأسطوانة تقول بأننا طوال هذه السّنوات فعلنا كل ما في وسعنا لأننا لم نكن نريد أن نساهم في تدهور الأوضاع نحو الأسوأ. هذه هي التعويذة التي استمرت حكومة المستشارة الألمانية "ميركل" في ترديدها في السياسة الخارجية حتى يومنا هذا. لكن بالمقابل، ماذ حصّلنا من وراء ذلك؟ لقد أصبحت الأزمة في البلدان العربية في القاع، بحيث لم يعد من المستطاع أن تكون الأزمة أسوأ ممّا هي عليه الآن.

في سوريا أصبح أغلب من لم يستطع الهروب بجلده خارج البلاد من الشعب هدفاً سهلاً للتطرّف والقوى الراديكالية هناك. من يرى الموت أمام عينيه كل يوم سوف يكون معرضاً لتغيير كبير في ذاته، حيث تكون الجنّة الموعودة في السّماء أقرب إليه من الوجود الصعب على هذه الأرض. إن خيبة أمل وإحباط السوريين سوف تؤدي في النهاية إلى طريق التنظيم الغاضب الذي يدعى "الدولة الإسلامية". هذا التنظيم الذي بلغ حدّاً في الوحشية فاق - بدرجات - تلك التي اشتهر بها تنظيم القاعدة ذاته. يماثل تنظيم "داعش" بالدرجة التي يحوزها من العنف والصرامة بالنسبة للإسلاميين، تلك الدرجة التي حازها تنظيم "الخمير الحمر" بالنسبة للشيوعيين. ميليشيات "داعش" تسيطر الآن على ربع العراق وثلث سوريا، بمساحة تكاد تكون أكبر من مساحة بريطانيا العظمى. لقد قام هذا التنظيم في شهر يونيو من سنة 2014 وعلى أنقاض هذين البلدين المنكوبين بإعلان الخلافة، التي تجاهر بطموحاتها العالمية التي لا تعرف أية حدود. بذلك تشكل "داعش" خطراً حقيقياً على العرب الشيعة وعلى المسيحيين وعلى كل المخالفين في الدين "الكفار"، خطراً يصل إلى مرحلة التطهير عرقياً وطائفياً. ليس هذا فحسب، هؤلاء يريدون لاحقاً أن ينقضوا على العالم كله.

ولأن الغرب لم يفعل شيئاً، فقد أخذت "داعش" تتمدّد في المنطقة كانتشار النار في الهشيم. لقد استطاع هؤلاء المقاتلون المتطرفون أن يخلقوا موجة جديدة وكبيرة من اللاجئين الذين يريدون أن يتوجّهوا صوب أوروبا لينشدوا خلاصهم، وذلك عبر البحر، الذي يبتلع الكثير منهم موتاً وغرقاً.

يجب علينا أن نفعل شيئاً لوضع نهاية لهذه المأساة التي تحدث أمامنا. ليس جديراً بنا ولا يمكن أن نسمح لأنفسنا بأن نواصل هذه الفرجة بعد الآن. يمكننا أن نمنع موتهم ونحافظ على حياتهم، ولكننّا لا نقوم بأي شيء في سبيل ذلك لأننا نعتقد بأن ذلك سوف يكلفنا ثمناً غالياً مقابل السماح لهم بالعيش بيننا.

ما حدث قد حدث، ولا يمكن الآن إرجاع عقارب الزّمن إلى الوارء. لكنّنا نستطيع بالتأكيد أن نقدّم شيئاً ذا قيمة لجميع أولئك الذين نجوا من سياساتنا الخاطئة، أن نفتح فصلاً جديداً من الرّحمة.

لقد فعلناها ذات يوم في أوروبا ولنا سابقة في ذلك. عندما استعرت الحرب في "البلقان" قمنا بتسهيل وضمان حق اللجوء غير المشروط للاجئين من المناطق المنكوبة هناك. لقد استطعنا أن نبرهن بأن كل من أصله من "البوسنة والهرسك" يستطيع أن يجد ملاذاً بيننا هنا في ألمانيا، مع الإشارة إلى أنه يجب عليهم العودة إلى بلادهم عندما تنتهي الحرب وتصبح الأوضاع آمنة هناك. في ذلك الوقت وجد أكثر من 350 ألف شخص الحماية في ألمانيا، كل هؤلاء عادوا جميعهم إلى ديارهم، باستثناء 20 ألفاً من الحالات الخاصة.

إلى متى يجب علينا الانتظار ونحن نشاهد هؤلاء البشر يغرقون ويموتون في أعالي البحار؟ إلى متى يجب علينا أن نجبر جيلاً فتيّاً من السوريين على اللجوء بطرق غير شرعية؟ وتركهم لمصيرهم مع تجار البشر والحروب من العصابات؟ إلى متى سنقوم بخيانة أنفسنا والضحك عليها؟ هذه الحروب المشتعلة في الشرق الأوسط يجب أن تغيرنا وتطال منا نحن الأوروبيين أيضاً. إننا نقوم بعمل سوف يجلب علينا خراباً بشكل بطيء، وبخطى واثقة قد لا

نشعر بها. من خلال العمل على حماية مجتمعاتنا بهذه الطريقة، نحن نقوم بتدمير أنفسنا أيضاً. لا يجب علينا أن نسمح بذلك أبداً.

لا تجبروا النساء والأطفال والرجال على الاحتماء بقوارب اللّجوء والموت. فلتفتحوا الحدود الآن. ليكن في قلوبكم رحمة وشفقة.

تنويه

منتصف سبتمبر من العام الماضي، شهد وفاة "محمّد" الأخ الأكبر لـ"علاء" و"حسّان"، وذلك في محاولته لتتبّعهما عبر البحر. لقد قام المهربون بإغراق سفينتهم عمداً بعد أن رفض -مع الآخرين من اللاجئين- الانتقال إلى قارب أصغر. كان على متن هذه السفينة 500 شخص، من بينهم مئات الأطفال، مع عدد قليل جداً من الرجال. كانت إحدى أكبر الكوارث التي شهدها البحر المتوسط في السنوات الماضية. "محمّد" - رحمه الله - قدم لنا الطعام والشراب والملابس عندما تم احتجازنا في السجن في مصر. فتح "محمّد" محلاً صغيراً لبيع السجّاد في القاهرة. الشرابات التي قدمها لي "محمّد" ما زلت أحتفظ بها في دولابي حتى الآن. هذه الشرابات التي اتسخت وكانت الرائحة الكريهة تنبعث منها جعلت مني إنساناً آخر. منذ ذلك الحادث الأليم ينتظر "حسّان" و"علاء" أن يجدا جثة أخيهما كي يستطيعا دفنه بكرامة. حتى الآن لا يوجد أي أثر لأي من الجثث الـ500 التي ابتلعها البحر. ولكن هؤلاء لم يبحث عنهم أحد بجديّة. لم يكن هؤلاء ركّاباً غربيين على متن طائرة "بوينج" غرقت في المحيط الأطلسي. كانوا لاجئين بطرق غير شرعية، يحاولون كسر القوانين، كي يجدوا لهم ولأطفالهم مستقبلاً أفضل. لم يكونوا سوى مجرد أشخاص بلا أوراق رسمية وبلا أسماء. ماتوا مجهولين دون أن يعرفهم أحد.

كلمة شكر

أتقدم بجزيل الشكر لكل من قدم لنا مساعدة في هذه الرحلة. أشكر الرائعة "كريستينا كيك" التي رفضت أن أقوم بهذه المغامرة لكنها تركتني أستمر فيها رغم ذلك. كما أشكر الصديق والمصور الفوتوغرافي "ستانيسلاف كروبر" على مواساته وصبره. كل الشكر لرئاسة تحرير مجلة "دي تسايت" على كل الدعم الذي قدموه وأخصّ بالذكر "آنا وهبة"، التي رافقتني بكل الرحلة على التليفون يوماً بيوم وأمدتني بالكثير من الحرية والقوة. أشكر أيضا "يورج بيرجر" الذي راجع الكتاب بكثير من المهنية والخبرة. كما أشكر الدكتور "أولريش شتولته"، الذي أرجو لأعماله الروائية السماوية المبدعة أن يتم اكتشافها في عالم النشر الأرضي هذا. كما أنني أشكر السفارة الألمانية في القاهرة وذلك لما قدمته من مساعدة أثناء احتجازنا هناك.

أشكر كذلك كلاً من "يامن أبو عون" و"عصام حانوتي" و"ميرفت أبو خميس" و"حازم سلورة" و"محمّد بكّاش" و "أبو عبد اللّه البلطجي" على دعمهم الصبور خلال شهور التحضير الطويلة.

أشكر أيضاً "أنس عبد الدائم" وعائلته الكريمة، كل الشكر لهم فعلاً.

أتمنى لهم أن يجتمعوا مع بعضهم مرة أخرى قريباً.